زوجات الرسول ﷺ

أمهات المؤمنين
عفة - شرف - طهارة

أميمة محمد علي

أميمة محمد علي

زوجات الرسول ﷺ

أمهات المؤمنين

عفة - شرف - طهارة

الروضة
للنشر والتوزيع

مقدمة

إن الإنسان يجيش صدره بالمشاعر والأحاسيس وهو يكتب هذه الكلمات عن بيت النبوة ، وما أدرانا ببيت النبوة ، إنه بيت حبيبنا رسول الله ﷺ ، بيت أفضل خلق الله قاطبة ، ذلك البيت الذى كان مهبطاً لوحى الله ، ففيه نزلت آيات الله تتوالى تُعلم وتهدى وترشد إلى كل خير ، تنزل لنفوس تهفو وتشتاق إلى القرآن اشتياق الأرض الجدباء للماء .

إنه بيت الهدى والإيمان والحب والعفة والتقوى والصدق والتسامح ، إنه بيت الرحمة والإحسان ، إنه بيت النبى ، بيت النبوة ، بيت النبى الزوج ، بيت النبى الأب .

هذا البيت الكريم احتوى بين جنباته نساء فضليات هاديات مهديات ، صغت آذانهن لآيات الهدى ، وأبصرت أعينهن أفضل خلق الله يُعلّم أصحابه .

كل هذا جعلهم مصابيح هدى وينابيع علم ، يتعلم المسلمون على أيديهن العلم ، ويستفتونُهنَّ فيما يظهر لهم من مواقف حياتية تحتاج إلى استجلاء هدى رسول الله ﷺ من خلالهن رضى الله عنهن ، فهن الأقرب لرسول الله ﷺ ، وهن الألصق به فى معظم الأوقات ، حتى فى الغزوات كان بعضهن بجواره ﷺ .

إنهن - رضى الله عنهن - نساء أهل البيت اللائى أذهب عنهن الرجس والدنس ، فلسْنَ مظنة للتهم ، ولا موضعاً للشك .

إن المرأة المسلمة فى هذا العصر تفتقد القدوة الصالحة والأسوة الحسنة التى تقتدى وتهتدى بها ، فخرجت أجيال وراء أجيال عن جادة الطريق وسواء السبيل ، فأصبحن مصادر فتنة وإغواء ، وأصبحن مصادر شقاء للمجتمعات ، فكم من الجرائم ترتكب فى مجتمعنا الأساس فيها امرأة قد أغوت أو شجّعت وحرّضت أو زيّنت .

وما هذا إلا لأنها افتقدت القدوة الطيبة فى هذا المجتمع التى تتكاثر فيه الشرور وتتدافع فيه الشهوات والملذات الدنيوية .

لقد حوى بيت النبوة أنماطاً كثيرة من أمهات المؤمنين ففيهن : المرأة الشابة ، والأرملة ، والتى فُرِّق بينها وبين زوجها لأنه ترك الإسلام ، والتى تزوجها النبى ﷺ لحكمة تشريعية ، والتى كانت ابنة يهودى ، والتى جاءت ضيفة من مصر على جزيرة العرب .

إنه بيت كريم مفضال ، صهر كل هؤلاء فى مزاج واحد ، يعطين القدوة لبنات المسلمين ولنسائهم ولأمهاتهم .

فأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب كل راغبة فى الهدى والصلاح والتقى والعفاف والغنى وغنى النفس وقرة الأعين .

وصلِّ اللهم على محمد الرسول الأمين هادى البشر إلى أقوم سبيل .

١ ــ « خديجة بنت خويلد »

« أم المؤمنين الأولى »

« رضي الله عنها »

> « رأيت خديجة على نهر من أنهار الجنة فى بيت من قصب ، لا لغو فيه ولا نصب »
>
> رواه الطبراني فى الكبير عن جابر
>
> « ما أبدلنى الله خيراً منها ، قد آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذب الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء »
>
> أخرجه أحمد من حديث عائشة

عندما ولد سيدنا محمد ﷺ ، كانت السيدة « **خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي** » القرشية الطاهرة فتاة حسناء في سن الزواج ، وقد أضيف إلى حسنها وجمالها ، عراقة الحسب والنسب ، فتزوجت من « **عتيق المخزومى** » فمات تاركاً لها بنتاً ومالاً . ثم تزوجت بعده من « **أبى هالة التميمي** » فمات وترك لها طفلين .

وحين فقدت السيدة خديجة زوجها واحداً بعد الآخر تقدم لزواجها أغنياء القوم وأشرافهم من قريش ، إذ كانت ذات شرف ومال ، فرفضت أن تتزوج ، ولعلها كانت عازفة عن الزواج متسلية عنه بأطفالها اليتامى الصغار ، ورأت ألا تدع مالها عاطلاً حتى لا ينفد في نفقات المعيشة ، فتاجرت فيه وهي محتجبة في بيتها ، فكانت تستأجر رجالاً يعملون في التجارة لحسابها لقاء أجر ، ويكون لها ربح التجارة ، وللأجراء أجر العمل .

ولما بلغ النبى ﷺ الخامسة والعشرين من عمره ، قال له عمه أبو طالب ، الذى تولى كفالته بعد جده عبد المطلب :

يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً يتجرون في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود المدينة ....

« وقد بلغنى أنها استأجرت رجلاً ببكرين ، ولسنا نرضى لك ما أعطته ، فهل لك أن أكلمها ؟ » .

قال سيدنا محمد ﷺ :

ما أحببت ياعم .

فسار أبو طالب إلى السيدة خديجة ، وقال لها :

هل لك يا خديجة أن تستأجرى محمداً ؟ فأجابت من فورها المحظوظة المرزوقة رزق الدنيا والدين من فضل الله ، رب العالمين : لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألته للقريب الأمين .

وأرسلت السيدة خديجة إلى سيدنا محمد ﷺ تستدعيه للخروج في تجارتها ، وقالت له :

« دعانى إلى أن أبعث إليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ، وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلاً آخر من قومك » .

فأخبر النبى ﷺ عمه أبا طالب بما حدث بينه وبين السيدة خديجة فقال له عمه :

« يا محمد هذا رزق ساقه الله إليك »

واستعدت إبل قريش للرحيل إلى الشام ومعهم أمين خديجة سيدنا محمد وغلامها ميسرة ، واجتازت القافلة الطريق حتى وصلت إلى بُصْرى فباع أهل القافلة ، واشتروا ، وقايضوا ، واستبدلوا . وربحت تجارة السيدة خديجة على يد الأمين محمد ضعف ما كانت تربح من قبل ، وسرَّ ميسرة ما رأى من رواج التجارة ، فقد كان وفياً بسيدته معجباً بفضلها .

وعندما وصلت القافلة إلى مكة قال ميسرة لسيدنا محمد ﷺ :

« أسرع أنا إلى سيدتى فأخبرها بما صنع الله على وجهك ، فإنها

تعرف ذلك لك » ثم نزل سيدنا محمد ﷺ ، من على بعيره قاصداً دار « خديجة » ، بعد أن طاف بالبيت العتيق .

وكانت « خديجة الطاهرة » هناك في دارها تراقب الطريق من مكان مرتفع في لهفة وقلق ، وإلى جانبها غلامها ميسرة الذى كان يحدثها عن رحلته مع سيدنا محمد ﷺ فقال لها :

لقد رأيت عجباً يا سيدتي في هذه الرحلة في الطريق ، كنا لا نحس حَرَّ الشمس ، وكانت غمامة تظللنا طول الطريق ، كأنها مظلة على رؤوسنا وفى بُصرى لقينا من راهباً من أهل الشام فوقف ينظر طويلاً إلى محمد ، ثم سألنى عنه ، فذكرت له صفاته وطهارته ، فقال :

إن من يجلس بجوار هذه الشجرة وتظله هذه الغمامة المنخفضة ، وصفاته — كما ذكرتها لي — هي صفات للأنبياء .... قد يكون النبي المنتظر » .

وأكدت السيدة خديجة رضي الله عنها هذا القول ، فقد كانت تترقب الشاب الأمين « محمداً » وهو قادم إلى مكة من رحلة الشام ، فرأت ما يشبه ذلك .

وعندما اقترب سيدنا محمد من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة أسرعت إليه تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، في صوت يفيض عذوبة ورقة وحناناً .

ورفع إليها وجهه شاكراً ، وقد غضَّ من بصره ، ثم مضى يقصُّ عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام ....

وأنصتت إليه شبه مأخوذة ، حتى إذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هى ، تتبعه بعينها إلى أن توارى في منعطف الطريق .

ثم اتجه سيدنا محمد ﷺ ، وهو يحس شيئاً من الرضا والارتياح ، أنه عاد من رحلته موفقاً سالماً ، لم يمسه أذى من يهود ....

وكانت للسيدة خديجة صديقه وفية ، هي السيدة « نفيسة بنت مُنيه » ، فلم تكتم عنها إعجابها بسيدنا محمد ﷺ ، الذي ائتمنته على تجارتها وأشادت لها بما رأته من صدقه وأمانته وبركته .

فرأت نفيسة أن من واجبها نحو صديقتها أن تعمل على إسعادها بالزواج من الأمين ، فقالت لها :

ما عليك يا خديجة أن تتزوجي من الأمين ، فتحيرَّت السيدة خديجة في إجابتها ، فهي إما ترحب بالفكرة ، وقد لا يرحب بها أمينها ، وإما أن تكتم رغبتها حتى تبدو منه الرغبة ، فتتلاقى الرغبتان ، وينعم الاثنان بالزواج .

وهنا أشارت عليها أختها السيدة هالة .. أن تستطلع رغبة الأمين فعهدت السيدة خديجة إلى صديقتها نفيسة بهذه المهمة .

وتروى السيدة نفيسة ما حدث بينها وبين السيدة خديجة فتقول :

استدعتني السيدة خديجة إليها عقب وصول قافلتها التي كان محمد الأمين يشرف عليها ويقودها ، فقالت : لقد اخترتك لأمر مهم ثقة بك قلت : « أطوع لك يا سيدتي من بنانك »

قالت : انطلقي إلى محمد فاذكريني له ، فقلت لها : إنك أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وإن كل قومك حريص على زواجك ، لو قدر على ذلك ، وقد طلبك أكابر قريش ، وبذلوا لك الأموال فلم تفعلي » .

فقالت لها خديجة :

« لقد قلت حقاً ولكنني اليوم راغبة في محمد ، وقد حزمت أمري ، واخترت رجلي ، فانطلقي له واذكريني له » .

فذهبت السيدة نفيسة إلى بيوت بني هاشم تسأل عنه ، حتى إذا رأته في أحد بيوت عماته انتهزت خلوة به ، فقالت له في ترفق وإغراء :

« إنك اليوم أمين قريش وفتاها الحبيب وقد تزوج لدانك ، وأصبح لكل منهم الولد ، فما يمنعك من الزواج ؟

فقال لها النبي ﷺ : ما بيدي ما أتزوج به .

فقالت له نفيسة : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال والمال والشرف ، ألا تجيب ؟

فقال الأمين لها : فمن هي ؟

فقالت له نفيسة : خديجة .

فقال لها النبي ﷺ : بنت خويلد ؟

فقالت له : نعم .

فقال لها النبي ﷺ في ابتهاج : وكيف لي بذلك !؟

فقالت له السيدة نفيسة : عليَّ ذلك ، فقال لها النبي ﷺ : وأنا قد رضيت .

وعادت نفيسة إلى صديقتها خديجة بأحب بشرى إلى قلبها ، إذ إن النبي ﷺ ، علق الزواج على قبول خديجة .

وأخذ الأمين العجب أن ترفض خديجة أشراف قومها الذين ألحوا في الزواج منها ، وترتضيه هو ، وإن كان أقلهم مالاً .

وانطلق سيدنا محمد ﷺ ، يسعى نحو الكعبة فقابلته إحدى الكاهنات فاستوقفته سائلة :

جئت خاطباً يا محمد ؟

فأجابها صادقاً : كلا .

فتأملته برهة ، ثم هزَّت رأسها وهي تقول :

ـــ « فَلِمَ ؟ ... فوالله ما في قريش امرأة وإن كانت خديجة ، إلا تراك كفئاً لها » .

وبعد فترة قصيرة ، أرسلت إليه السيدة خديجة تستدعيه ، فسارع إليها مُلبّياً وفي صحبته أبو طالب وحمزة ابنا عبد المطلب .

وهناك في بيت السيدة خديجة وجدوا قومها ينتظرونهم ، وكل شيء مهيئاً لزواج سريع ... وتكلم أبو طالب قائلاً :

« أما بعد .. فإن محمداً ممن لا يُوازَنُ به فتى من قريش ، إلا رجح

به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان في المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ... » .

فأثنى عليه عمها « عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصي » وأعلن قبول الزواج على صداق قدره عشرون ناقة .

ولما انتهى العقد .. نحرت الذبائح ، ودقت الدفوف ، وفتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فإذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بني سعد ، لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته ، ثم تعود ، ومعها أربعون رأساً من الغنم هبة من العروس الكريمة لتلك التي أرضعت « محمداً » زوجها الحبيب ...

وكيف لا تكرمها العروس ، وقد رأت زوجها العظيم يرحب بها حين وفدت إليه ، ويقول : أمي أمي ، وبسط لها رداءه ، فقعدت عليه ، وهز ذلك العطف أحاسيس السيدة خديجة ، فامتلأت عيناها بالدموع ، وأجزلت العطاء لأم الحبيب من الرضاع .

وتزوجت السيدة خديجة سيدنا محمداً ﷺ ، وهي في الأربعين من عمرها ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، وسَعِدَ الزوجان بالمودة والرحمة التي قامت بينهما واستقرت ، فعرفت أُمنا الكبرى أمينها زوجاً كاملاً أكمل ما يكون الزوج ، كما عرفته من قبل أميناً أكمل ما يكون الأمين .

واستغرقا في هناءتهما خمسة عشر عاماً ، ناعمين بالألفة

والاستقرار ، وقد أتمَّ الله عليه نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة عليهم رضوان الله جميعاً ، وقد فقد الزوجان ولديهما الحبيبين في طفولتهما ، فاحتسباهما عند الله (القاسم ثم عبد الله) وبقيت لهما بناتهما الأربع .

ومن مظاهر المودة والرحمة بين الزوجين أن السيدة خديجة تركت لسيدنا محمد حرية التعبد كما يشاء ، فكان الأمين يذهب إلى غار حراء ، ويخلو فيه متفكراً في صنع الله ، الذي أتقن كل شيء ، ومنكراً عبادة الأصنام التي تكدست حول الكعبة ، وعبدها كفار لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

وأحاطت أمنا الكبرى زوجها الأمين بالعطف في طريقه هذا ، فلم تعترض على خلوته بعيداً عن داره طوال شهر رمضان ، الذي كان يختار أيامه للخلوة ، بل على العكس كانت ترسل وراءه من يحرسه ويرعاه . وتذهب بنفسها إلى الغار ليطمئن قلبها عليه في خلوته ، بعيداً عن مجتمعه الذي يعبد الأصنام من دون الله ، أما هو فقد آثر الله وهجر أهله ، وذهب إلى الله يأنس به .

فلما نزل عليه الوحي في ليلة القدر ، وهو في غار حراء ، انطلق يلتمس بيته في الفجر خائفاً شاحباً يرجف فؤاده ، حتى بلغ حجرة زوجته ، وذهب عنه الخوف ، فحدَّثها في صوت مرتجف عن كل ما كان ، ونفض لديها مخاوفه ، قال :

« لقد خشيت على نفسي » فضمَّته إلى صدرها ، وهتفت قائلة في ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبداً ... إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلَّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وأحس النبي ﷺ بالراحة والطمأنينة ، والسيدة خديجة تقوده في رفق إلى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالي ، وعندما راح النبي ﷺ في نوم عميق ، تسللت السيدة خديجة من جانبه ، وذهبت إلى ابن عمها « ورقة بن نوفل » وقد كان ممن ينكرون عبادة الأصنام ، ويقرأ في الكتب السماوية ، وقصت عليه ما حدث في ذلك اليوم ، فانتفض يقول في حماسة :

« قدوس ... قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر ، الذي كان يأتي موسى وعيسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » .

ولم تنتظر خديجة مزيداً من قول ابن عمها ورقة ، ولم تستعد كلمة واحدة منه ، بل أسرعت إلى زوجها الحبيب تعجل إليه البشرى .

وما كادت أمنا الكبرى تحدث زوجها بما بشرها ابن عمها ورقة ، حتى استدار ﷺ ، ونظر إلى الفراش وقال متأثراً :

« انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن

أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وعبادته فمن ذا أدعو ، ومن ذا يستجيب » ؟؟

فأجابته من فورها في لهفة المؤمنة الصادقة :

أنا أستجيب يا محمد ......

« فادعني قبل أن تدعو أي إنسان ، وإني لمسلمة لك ، مُصدِّقة برسالتك مؤمنة بربك » .

ثم ذهب ﷺ إلى ورقة بن نوفل فلم يكد ورقة يراه حتى صاح :

« والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ولتُكذَّبن ولتُؤذَيَنَّ ولتُخرجَن ولتُقاتلَن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم ، لأنصرن الله نصراً يعلمه » .

ثم أدنى رأسه إليه ، فقبَّل يافوخه ، ثم قال ﷺ : « أوَ مُخرجِيَّ هم » ؟ فأجاب ورقة :

« نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا دعوى ، ليتني أكون فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً » . وقد طابت نفس الرسول ﷺ ، بما سمع من ورقة .

وأخذ النبي ﷺ ، في نشر دعوته ، وقد عاداه قومه ، ولكنه مضى فيها غير عابىء بما يلقاه في سبيلها من أذى ، ولا عجب في ذلك فهو كبير أولي العزم من الرسل ، الذين صبروا على الشدائد في تبليغ رسالاتهم ، التي تُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم .

ووقفت السيدة خديجة الزوجة المحبة المؤمنة إلى جانبه ، تنصره وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى أنواع الأذى والاضطهاد سنين عدداً ، وأعلنت قريش على بني هاشم وبني عبد المطلب ، وهم قوم سيدنا محمد ﷺ ، حرباً شعواء ، اضطرتهم فيها قريش أن يخرجوا من مكة ، لائذين بشِعْب أبي طالب في أطراف مكة ، حيث أُحصروا فيه ، وأعلنت قريش مقاطعتها لهم في صحيفة ، علقتها في وسط الكعبة ، تتضمن ألا يبيعوهم ، أو يشتروا منهم شيئاً ، أو يتزوجوا منهم .

ولم تتخلَّ أمُّنا الكبرى خديجة عن الخروج مع زوجها الكريم إلى شِعْب أبي طالب ، فتركت دارها الحبيب التي عاشت فيها سنين عديدة ، وكانت قد طعنت في الشيخوخة التي لا تحتمل عادة مثل ذلك الاضطهاد والتشريد ، ولكن إذا لم يكن الوفاء من السيدة خديجة فممن يكون ، وهي التي آزرت زوجها في حياته مؤازرة الصدق والإخلاص ، تلك المؤازرة التي ظل يذكرها ﷺ ، في كل مناسبة ولا ينساها أبداً .

ودام هذا الحصار ثلاث سنوات ، ولكنه فشل أمام الصبر والإيمان الصادق . وعاد النبي ﷺ إلى بيته في جيرة الحرم المكي ، مع زوجته المؤمنة الصابرة التي بذلت له في المحنة ، ما أبقى لها الزمن من طاقة ، في عامها الخامس والستين .

بعد نحو ستة أشهر من فك الحصار ، مات عمه « **أبو طالب** »

وقد كان لابن أخيه ﷺ أباً صديقاً وكافلاً وحامياً ومانعاً له من أذى قريش .

ولم تشهد رضي الله عنها مأتمه ، فقد كانت في فراشها تودع الدنيا ، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبها ، يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى ، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده في هذه الدنيا . ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام ، بين يدي الزوج الذي تفانت في حبه منذ لقيته ، والنبي ﷺ ، الذي صدَّقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر ، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير في حياتها ، وكانت له سكناً وأنساً وملاذاً ، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية ، ودفنها ﷺ بالحجون .

كانت وفاتها رضي الله عنها ، قبل الهجرة بثلاث سنين ، وسمى النبي ﷺ العام الذي توفيت فيه خديجة بـ « **عام الحزن** » .

٢ ـ « سودة بنت زمعة العامرية »

« رضي الله عنها »

وهبت ليلتها لعائشة ، لما رأت من حبه ﷺ لها ، أرادت رضاء رسول الله ﷺ ، رضى الله عنها وأرضاها .

في العام العاشر بعد البعثة توفيت أم المؤمنين « **خديجة بنت خويلد** » رضي الله عنها ، وكان النبي ﷺ في الخمسين من عمره وقد حزن عليها حزناً شديداً ، وأحس بالفراغ الكبير الذي تركته ، فهي أم عياله وربة بيته ، ووزيره في الإسلام ، وشريكته في الجهاد .

وزاد من المصيبة أن توفى بعدها بشهر تقريباً عمه أبو طالب ، ففقد رسول الله ﷺ السند القوى الحامى المهيب ، الذي كانت تخشاه قريش ، وأصبح عليه الصلاة والسلام ، لا يجد له في القوم نصيراً ولا في بيته أنيساً ، فشق عليه ذلك ، ولزم داره وسمى هذا العام بعام الحزن ، ولهذا عرض عليه بعض المسلمين أن يتزوج سيدة ترعاه وتدير شئون بيته ، وتقوم برعاية مصالح ابنتيه « أم كلثوم وفاطمة » واختيرت له « سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس

العامرية » ، وكانت أرملة مسنة ليست ذات جمال ، قد مات عنها زوجها « **السكران بن عمرو** » ، وكان من المسلمين الأوائل الذين هاجروا بزوجاتهم إلى الحبشة ، فراراً من اضطهاد وأذى قريش لهم ، ثم رجع إلى مكة ومات ، ودُفِنَ فيها :

وشاع في مكة أن « **محمداً** » ﷺ قد خطب « **زمعة** » فكاد الناس لا يصدقون سمعهم ، لأن مثل سودة غير ذات مطمع للرجال ، فهي أرملة مسنة ، وغير ذات جمال فكيف تخلف خديجة بنت خويلد ، التي كانت يوم خطبها النبي ﷺ سيدة نساء قريش ، ومطمح أنظار السادة من قريش !!

كلا .. لن تخلف « **سودة** » أو غيرها « **خديجة** » . سوف يتزوجها النبي ﷺ جبراً لخاطرها ، وعزاءً لها عن زوجها ، وابن عمها « **السكران بن عمرو بن عبد شمس العامري** » . وإنقاذاً لها من الفتنة ، لأن باقي قومها كانوا كفاراً .

وتزوجت « **سودة** » من النبي ﷺ ، وأيقنت من اللحظة الأولى من زواجها ، أن حظها من النبي ﷺ ، بِرٌّ ورحمة ، لا حب وتآلف ، وأن بينها وبين قلب النبي ﷺ ، حاجزاً لا حيلة لها فيه ، ولكن ذلك لم يهمها ، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله ﷺ إلى تلك المكانة ، وأن جعل منها — « **أرملة السكران بن عمرو** » — أمًّا للمؤمنين وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها في بيت النبي ﷺ ، وأن تخدم بناته .

وكان يسعدها أن تراه ﷺ ، يضحك من مشيتها ، لأنها كانت

ثقيلة الجسم ، وإن كان يأنس أحياناً إلى خفة روحها ....

وقالت له مرة :

« صلَّيتُ خلفك الليلة يا رسول الله ، فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم !! » .

فتبسم النبي ﷺ ضاحكاً من قولها ....

وبقيت أم المؤمنين « **سودة بنت زمعة** » رضي الله عنها ، في بيت النبي ﷺ ، بمكة تخدمه وبنتيه بكل إخلاص ووفاء ، حتى هاجرت مع الرسول ﷺ إلى المدينة ، وتزوج النبي ﷺ بعد ذلك عائشة « رضي الله عنها » ، فأفسحت لها « سودة » المكان الأول في البيت ، وكرست كل جهدها لخدمة العروس ، والسهر على راحتها .

ثم وفدت بعد ذلك ، على بيت النبي ﷺ أزواج أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت زاد الركب ... فما ترددت سودة في إيثار عائشة بإخلاصها ومودتها ، وإن لم تظهر ضيقاً بهؤلاء الزوجات ، اللاتي يستأثرن دونها بعواطف الرسول ﷺ .

لكن النبي ﷺ أشفق عليها من الحرمان العاطفي ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه ، ولكن بشريته لم تطاوعه ، فكان أقصى ما استطاعه لسودة ، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، أما عواطفه فإنها له ، وهو بشر .

وفكر النبي ﷺ في أن يسرحها سراحاً جميلاً ، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مُترفقاً بعزمه على طلاقها .

وسمعت النبأ وهي مذهولة ، لا تكاد تصدق وأحست كأن جدران غرفتها تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفساً ، فرفعت وجهها إليه ﷺ ، في ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانياً مشفقاً ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الخوف الذي كاد يقضي عليها .....

وعندئذ آبت سكينتها ، فهمست في ضراعة :

ــ « أمسكني ، ووالله ما بي على الأزواج من حرص ، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً لك » .

وأحست ببرودة الشيخوخة تخيم على جسدها الثقيل ، فخجلت من تمسكها بزوج تتنافس في حبه عائشة ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وحفصة !.... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكاناً ، بل شعرت أنها إذ تأخذ ليلتها مثلهن ، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه .

وهمّت بأن تجيب في قهر :

سرّحْني يا رسول الله !

لكن الكلمات تعثرت في حلقها .... وفجأة ، لاح لها خاطر استراحت له نفسها ، فقالت في هدوء :

أبقني يا رسول الله ــ وأهب ليلتي لعائشة ، وإني لا أريد ما تريد النساء .

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمح الكريم ، يأتي سودة ليسمعها كلمة الطلاق ــ ما أبغضها ! فيكون جوابها هذا . الإيثار النبيل ، تتحرى به مرضاة الزوج الكريم .

ولقد عاشت سودة في بيت الرسول ﷺ ، حتى لحق بربه ، وعاشت حتى توفيت في آخر زمن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

٣ ــــ « عائشة بنت أبي بكر »

« رضي الله عنها »

حبيبة رسول الله ﷺ ، الصّديقة بنت الصّديق ، التي برّأها الله من فوق سبع سماوات ، علّمت أمة محمد ﷺ عِلم رسول الله .

هي عائشة بنت أبي بكر الصديق ، أبوها أبو بكر بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن عمر بن تيم بن مرة ، وأمها هي أم رومان بنت عمير بن عامر ــــ من بني الحارث ــــ بن غنم بن كنانة .

وأم عائشة من الصحابيات الجليلات ، كانت قد تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدي ، فولدت لهُ الطفيل ، ولما توفى زوجها ، تزوجها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن .

أسلمت أم رومان بمكة ، ثم بايعت وهاجرت بعد ذلك إلى المدينة ، مع أهل رسول الله ﷺ ، وتوفيت بالمدينة في عهد النبي ﷺ ، في ذي الحجة ، سنة ست هجرية ، ولما أنزلت أم رومان في

قبرها ، قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » ، ونزل ﷺ في قبرها .

وكان قوم عائشة ، بنو تيم ، من القبائل التي احتلت مكانة مرموقة في المجتمع القريشي ، فقد اشتهروا بالكرم ، والسخاء ، والشجاعة والأمانة ، وسماحة الخلق ، وكانوا من مضرب المثل في حسن معاشرة النساء ، فقد كانت أسرهم تعيش في مودة وسلام .

وكان من أبرز رجال تيم أبو بكر بن أبي قحافة ، فقد كان تاجراً ميسور الحال ، عُرِفَ بحسن الخلق وطيب المعشر حتى ألفه كل رجل في قريش ، وزاد من هذه الألفة ما عرف عنه من حفظه للأنساب والأشعار ، وعلمه الغزير بتاريخ قريش ، وما حولها من قبائل العرب .

فلما بُعِث النبي ﷺ ، بالدعوة .. كان أبو بكر هو أول من آمن بالنبي ﷺ دون تردد ، فازداد شرفاً على شرف ، وكان المدافع عن النبي ﷺ ، بكل ما يملك من مال ، والداعي إليه في شجاعة وحَميَّة ، وأسلم بفضله كثير من الصحابة ، منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .... وهم من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم أجمعين .

وقال النبي ﷺ : « ما نفعني مال قط ، مثل ما نفعنا مال أبي بكر » قيل فبكى « أبو بكر » ثم قال « يا رسول الله ، وهل أنا ومالى إلا لك ؟ » .

أما عائشة رضي الله عنها ، فولدت بمكة بعد الدعوة الإسلامية بخمس سنوات ، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هي وأختها أسماء ، وكان المسلمون في ذلك الوقت قلة معدودة .

ومما زاد في حظ عائشة من حسن التربية أنها ولدت وأبواها يدينان بالإسلام .... فلم تتفتح عيناها إلا بمنظر أبويها وهما يؤديان الصلاة ، ولم يتفتح قلبها إلا على حب الدين والتفاني في هذا الحب ، وكان أبو بكر شديد الرقة في قراءة القرآن حتى إنه لَيَبْكِي ، وحتى أن قريشا خافت على رجالها ونسائها أن تفتنهم قراءة أبي بكر فيتابعونه على دينه ، فسعوا ليكفوه عن رفع صوته ، وهو يقرأ القرآن .

وكان رسول الله ﷺ يميل إلى عائشة ، إذ كانت ابنة أبي بكر ، وإذ كانت تبدو عليها أمارات الذكاء والفطنة ، وهي لم تزل بعد في سني طفولتها الأولى ، وكثيراً ما أوصى أمها بها قائلاً :

ـــ « يا أم رومان استوصي بعائشة خيراً ، واحفظيني فيها » .

وهذه العبارة تدل على عطف وإعجاب ومودة .

وعندما جاءت « خولة بنت حكيم السلمية » لتخطب عائشة ، دخلت بيت أبي بكر فوجدت « أم رومان » فقالت لها :

ـــ أي أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !!

قالت : وماذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة !!...

قالت : وددت ، انتظري أبا بكر فإنه آتٍ ...

وجاء « أبو بكر » فقالت له : يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة !!...

قالت له خولة : أرسلني رسول الله ﷺ ، أخطب « **عائشة** » ....

فقال لها أبو بكر : وهل تصلح له ؟ إنما هي ابنة أخيه ....

فرجعت خولة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت له ذلك ، فقال لها :

« ارجعي إليه فقولي له إنك أخي في الإسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لي » .

فأتت خولة أبا بكر ، فذكرت له ما حدث فقال لها : انتظريني حتى أرجع ....

وقالت لها « **أم رومان** » : إن مطعم بن عدي كان قد ذكر عائشة على ابنه « جبير » ولا والله ما وعد ـــ أبو بكر ـــ شيئاً قط وأخلف .

ودخل أبو بكر على مطعم ، وعنده امرأته « **أم جبير** » ـــ وكانت مشركة ـــ فقالت له :

يا ابن أبي قحافة ، لعلنا إن زَوَّجنا ابننا ابنتك ، أن تُصْبِئَهُ وتدخله في دينك الذي أنت عليه ؟

فلم يرد عليها « **أبو بكر** » ، بل التفت إلى زوجها « **المطعم** »

فقال له : ما تقول هذه ؟ فقال له : إنها تقول ذاك .

فخرج « أبو بكر » من عند المطعم ، وقد شعر بارتياح ، بعد أن أحلّه الله من وعده ـــ وعاد إلى بيته فقال لخولة :

ادعي لي رسول الله ....

ومضت خولة إلى النبي ﷺ ، فدعته ، فجاء إلى بيت أبي بكر الصديق ، فأنكحه عائشة ، وهي يومئذ بنت سبع سنين ، على متاع بيتٍ ، قيمته خمسون درهماً .

لقد عاشت عائشة في كنف أرفع البيوت القرشية ومن أعلاها ثقافة .

عاشت في بيت كان أول البيوت بعد بيت رسول الله ﷺ ، إسلاماً وجهاداً .

ثم أراد الله لها منزلة أكثر رفعة وأشد سمواً فاختارها زوجة لرسوله ، وهي ما زالت في سن الطفولة .

لقد كانت حياة عائشة مع رسول الله ﷺ كتاباً مفتوحاً وصفحة مقروءة للناس أجمعين .

وتصف السيدة « **عائشة** » يوم زواجها فتقول :

جاء رسول الله ﷺ بيتنا فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتني ، ثم سوّت شعري ، ومسحت وجهي بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى إذا

كنت عند الباب ، وقفت بي حتى ذهب بعض نفسى ، ثم أدخلتني ورسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا ، فأجلستني في حجرة وقالت :

هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك .

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبقى بي رسول الله ﷺ في بيتي ، ما نحرت على جزور ، ولا ذبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة بجفنة ، كان يرسل بها إلى رسول الله » .

لم يقدم في عرس السيدة عائشة طعام حتى أرسل أحد الصحابة بجفنة فيها طعام ... طعام اعتاد هذا الصحابي أن يرسله إلى رسول الله ﷺ كل يوم ، طعام بسيط ... وعادي .

وحمل إليهما كذلك قدحاً من لبن ، شرب ﷺ منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه .

ثم انتقلت عائشة إلى بيت رسول الله ﷺ بالمدينة ، وما كان هذا البيت سوى حجرة مبنية من اللبن وسعف النخيل ، وكان أثاثها فراشاً من جلد حَشْوه ليف ، وليس بينه وبين الأرض إلا حصير ... وعلى بابها ستار من الشعر .

وفي هذا البيت المتواضع .. بدأت « **السيدة عائشة** » حياتها الزوجية التي ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا ، كما بدأت تأخذ مكانتها المرموقة في حياة النبي ﷺ وفي تاريخ الإسلام .

ولم يكن وجود « **سودة** » على مقربة منها ، زوجة ثانية لرسول الله ﷺ ، الذي أحبته عائشة بكل كيانها ، يشغل بالها في كثير أو قليل ، فما غاب عنها أبداً أنه لا مكان لسودة في قلب النبي ﷺ ، وإنما الذي كان يشغل بالها ، هو ذلك الحب العميق الذي ظفرت به « **خديجة** » قبلها من زوجها ، وتلك المكانة التي احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه ربع قرن من الزمان .

وأشد ما كان يغيظ عائشة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ، وهي راقدة في قبرها بالحجون ، تحت تراب مكة ، وكانت عائشة تتباهى وتتفاخر بأنها زُفَّتْ إلى المصطفى ﷺ ، بكراً لم تعرف قط زوجاً غيره ، فقالت للنبي ﷺ :

- « ماتذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، أبدلك الله خيراً منها » .

ورسول الله ﷺ بوفائه المعهود ، الذي يتجاوز الحدود يرد على عائشة وهو غاضب ويقول لها :

« والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

ومما زاد من قسوة الموقف أن مضت السنون والشهور ، و« **عائشة** » لاتنجب لزوجها ولداً ، على حين ولدت له « **تلك العجوز من قريش** » – كما كانت تصفها عائشة – البنين والبنات .

وكانت عائشة تعرف في زوجها ، وفي رجال قومها جميعاً ، ذلك الحب الطبيعي للأبناء ، والحرص على الإنجاب ، ثم ترس من تعلق رسول الله ﷺ ، ببنات خديجة مايرهف شعورها بشدة الحرمان التي تخيم على صدرها ، فتكاد تكتم أنفاسها لولا مايغمرها من عطف زوجها ومحبته ، ومايأخذها من إيمانها من تجمل بالصبر فيما لاحيلة لها فيه .

ولقد حاولت عائش أن تجد في بنات محمد ﷺ مايلطف من لهفتها على الأمومة ، فحاولت أن تتبناهن لكنها أحست كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن ، بل أحست أن كل واحدة منهن ، هي « **خديجة** » ذاتها ، وتذكرها في كل وقت بما كتب عليها من حرمان .

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء أخواتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة ، كي لايرهقها الكبت ، فضمت إليها ابن أختها أسماء ، وبه كانت تكني فيقال لها « **أم عبدالله** » .

وحسن مات أخوها « **عبدالرحمن** » ضمّت إليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

« **فما رأيت والدة قط أبرّ منها** » .

وجاءت بعد عائشة زوجات أخريات ، كانت فيهن زينب بنت جحش الشابة الجميلة ، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وجويرية بنت الحارث التي تملأ العين بملاحتها ، وصفية بنت حيي ، وأم حبيبة ، ومارية القبطية أم إبراهيم .

وكانت السيدة عائشة أشد نساء النبي ﷺ غيرةً عليه ، ونضالاً في سبيل الاستئثار بحبه .

وعذرها أنها أول من تفتَّح لها قلبه بعد « خديجة » وأنها وحدها التي تزوجها بكراً ، وأنها « عائشة بنت أبى بكر » ، وكانت تعلم ويعلم الجميع ، أن عائشة هي الزوجة الحبيبة المفضلة ، أحظاهن عند رسول الله ﷺ .

وكانت السيدة عائشة تتباهى بشبابها ودلالها وحظوتها عند الرسول ﷺ ، فتقول لضرائرها :

« أية امرأة كانت أحظى عند زوجى مني ؟ » .

وكان النبي ﷺ يقول لها :

« حُبُّكِ ياعائشة في قلبي كالعروة الوثقى » .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، قال : قلت لرسول الله ﷺ : يارسول الله ، مَنْ أحبُّ الناس إليك ؟ قال : « عائشة » قلت : من الرجال ؟ قال : « **أبوها** » قلت : ثم من ؟ قال : « **ثم عمر بن الخطاب** ... » فعدَّ رجالاً .

وكان المسلمون يعلمون مكانتها عند النبي ﷺ فيقدمون لها الهدايا ، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ .

ولقد ظلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، تبارك ماعاشت ، الشهر الذي خطبها فيه النبي ﷺ ، وتزوجها فيه ، فكانت تستحب

أن تزوج نساء قومها في شهر شوال وتقول :

« تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، وبنى بي في شوال ، فأيّ نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى مني ؟ » .

وشهدت السيدة عائشة انتصارات النبي ﷺ ، فكانت تتلقاه وهو عائد منتصراً من غزواته ، وترى دعوته وهي تنتشر في أنحاء الجزيرة العربية .

وعاد النبي ﷺ من حجة الوداع سنة عشر هجرية إلى المدينة ، فأقام بها فترة بسيطة ، وفي ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشر ، أحسّ النبي ﷺ بالأرق ، فخرج إلى البقيع يزور الأموات ، ويستغفر لهم ، وعندما رجع النبي ﷺ من البقيع ، وجد السيدة عائشة عندها صداع في رأسها ، وتقول : وا رأساه .

فقال لها النبي ﷺ :

« بل أنا والله ياعائشة وارأساه » .

ثم قال لها : **« ماضرك لو مت قبلي فقُمْتُ عليك ، وكفَّنتُكِ ، وصلَّيتُ عليك ، ثم دفنتك ؟ » .**

ردت عليه عائشة وقد ثارت غيرتها : « ليكُنْ ذلك حظ غيري ! والله لكأني بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعت إلى بيتي فأعرسْتَ فيه ببعض نسائك !! فتبسّم رسول الله ﷺ .

وأن النبي ﷺ طلب في مرضه الذي مات فيه أن يُنقَل إلى بيت

عائشة ، فأذن له أزواجه ، وانتقل النبي ﷺ ، إلى بيت عائشة الحبيبة تمرضه ، وجاء بلال يؤذن للنبي ﷺ ، بالصلاة ، فقال :

« **مُروا أبا بكر أن يصلي بالناس** » فقالت عائشة : يارسول الله إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى مايقوم مقامك لايُسمع الناس ، فلو أمرت عمر ؟ فقال ﷺ : « **مروا أبا بكر أن يصلى بالناس ..** »

ثم توفى النبي ﷺ ، وسعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ، وكادت تكون فتنة بين المسلمين ، عصم الله المسلمين منها حين ألهم « أبا بكر » أن يقف فى المسلمين فيقول :

« **أيها الناس ... من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت** » .

وتولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد موت النبي ﷺ ، وعاشت عائشة بعد النبي لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة ، والفقيهة الأولى في الإسلام .

وقال الإمام « **الزهري** » :

لو جمع علم عائشة ، إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ ، وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل .

وقال هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه : « **ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة** » .

ولقد عاشت عائشة ، لتصحح رأي الناس في المرأة العربية ،

وتشارك في حياة الإسلام أقوى مشاركة ، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التي صنعت التاريخ الإسلامي ، منذ مقتل « **عثمان بن عفان** » رضى الله عنه ، وتشهد الحرب يوم الجمل .

ثم توفيت رضى الله عنها في السادسة والستين من عمرها ، بعد أن تركت أعمق الآثار في الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين ، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ .

وكانت وفاتها ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من رمضان سنة سبع وخمسين هجرية ، وصلى عليها « **أبو هريرة** » ، ثم شُيِّعَتْ جنازتها ، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة ، فلم تُرَ ليلة أكثر ناساً منها .

٤ ـ حفصة بنت الفاروق

« رضى الله عنها »

طلّقها رسول الله ﷺ ، فنزل جبريل عليه السلام قائلًا له : « راجع حفصة ، فإنها صوّامة قوّامة ، وإنها زوجتك فى الجنة »

حافظة المصحف الشريف فى بيتها بعد جمعه رضى الله عنها وأرضاها .

لم يشهد « بدراً » من بنى سهم غير رجل واحد ، هو الصحابي الجليل « **خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى** » وكان من أصحاب الهجرتين ، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها ، ثم إلى المدينة ، وشهد « **أحداً** » كذلك ، ثم مات بعدها فى دار الهجرة ، من جراح أصابته في « **أُحُد** » وترك من ورائه أرملته « **حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية** » .

وتألم « **عمر** » لابنته التى ترملت .. « **حفصة** » الشابة التى ترملت ، وهى في الثامنة عشرة من عمرها .

وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ورأى ابنته فى حزنها ،

فبدا له ـــ بعد تفكير طويل ـــ أن يختار لها زوجاً صالحاً يرعاها ، وتأنس إلى صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت في حداد ، استغرق ستة أشهر أو تزيد .. ووقع اختياره على « **أبي بكر** » رضى الله عنه صفى النبى ﷺ ، وصاحبه وصهره ، وأول رجل آمن به .

ولم يتردد عمر ، بل ذهب من فوره إلى أبي بكر ، وحدَّثه عن « **حفصة** » والصديق يصغى إليه في عطف ومواساة ، ثم عرض عليه أن يتزوجها وفي يقينه أن « **أبا بكر** » سيرحب بالشابة التقية الورعة ابنة الرجل الذى أعز الله الإسلام به .

ولكن « أبا بكر » ظل صامتاً ، ولم يجب ، وانصرف « **عمر** » وهو لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض « **حفصة** » ، بعد أن عرضها عليه .

وسارت به قدماه إلى منزل « **عثمان بن عفان** » ، وكانت زوجته السيدة « **رقية بنت محمد** » ﷺ قد مرضت بالحصبة ، ثم ماتت رضى الله عنها .

وتحدَّث عمر إلى عثمان ، فعرض عليه « **حفصة** » وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبي بكر ، وأطرق عثمان مفكراً ... ثم رفع رأسه وقال لعمر :

أمهلنى أياماً يا عمر أفكر .

وانصرف عمر من مجلس عثمان وهو لا يشك في رغبة عثمان في مصاهرته ، ولكن عثمان أبلغ عمر بعد أيام بعدم رغبته في الزواج !!

ولم يحتمل عمر ما سبَّبه له صاحباه من الآلام ، فانطلق إلى رسول الله ﷺ ، يشكو له من صاحبيه .

ولقى عند النبى ﷺ ما فرَّج عنه هَمَّه وأزال عن صدره كربه ...

تبسم رسول الله ﷺ في وجه عمر وقال :

« يتزوج حفصة مَنْ هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان مَنْ هى خير من حفصة » .

وهبطت على عمر موجة من الفرح والسرور والسعادة ، وقام إلى المصطفى يصافحه متهللاً ، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض .

وخرج عمر مسرعاً ليزف البشرى إلى ابنته ، وإلى أبى بكر وعثمان ، وإلى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة ، ولقيه أبو بكر ، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحه ، فمد إليه يده مهنئاً معتذراً يقول :

« لا تَجِدْ علىَّ يا عمر .. فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشى سِرَّ رسول الله ﷺ ، ولو تركها لتزوجتها » .

ومضى كل منهما إلى ابنته :

أبو بكر لِيُهوِّنَ على « عائشة » من وقع الخبر . وعمر ليبشر « حفصة » بأكرم زوج .

وأنها ستكون زوجاً لرسول الله ﷺ .. وأماً للمؤمنين ..

وباركت المدينة كلها يد النبي ﷺ ، وهي تمتد لتكرّم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة .

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من « **أم كلثوم بنت محمد** » في جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة .

وتهيأ بيت النبي ﷺ ، لاستقبال حفصة التي تزوجها النبي في شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة .

وانتقلت « **حفصة** » إلى بيت رسول الله عليه السلام .

وكانت في البيت : عائشة ، وسودة قد سبقتاها إليه .

أما سودة فرحّبت بها راضية ، وأما عائشة فغاظها أن يأتيها زوجها بضرَّةٍ ، وما فعل ذلك قط مع « خديجة » .

وضايقها **ألا تجد في** « **حفصة** » عيباً فهي مَنْ هي ، شباباً وتقىً ، وعزةً ونسباً ..

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وحظ « **حفصة** » من هذين ، ليس بالذي يُنكَر .

وسكتت عائشة على مضض وغيرة ، إلى أن وفدت على بيت النبي أزواج جديدات ، فتناست « **عائشة** » ما كانت تجد من « **حفصة** »

وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها ، وأحسنهن بأن تقف معها في وجه الخطر المشترك .

وأدركت حفصة ، أنها إذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق أو العدل أن تكون هذه الضرة « عائشة » ، وقد سبقتها إلى بيت النبى ﷺ وإلى قلبه .

وربما جرح شعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة ، لكنها حين توالت الضرائر ، وقفت دون تردد إلى جانب بنت أبى بكر .

وكان عمر يراقب ابنته حفصة في قلق مبهم ، فيخيفه هذا التقارب ـــ غير الطبيعي ـــ بين ابنته وبين بنت أبى بكر ، فلما وضح له ما وراء تقاربهما من تآمر بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها ، وليس لها مثل حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه .. فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية الحبيبة ، فقال لها :

« أين أنت من عائشة ، وأين أبوك من أبيها ؟؟ » .

وسمع **« عمر بن الخطاب »** من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضباناً ، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان حقاً ما سمعه ؟

فقالت : إنه حق . فزجرها قائلاً :

« تعلمين إنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية ، لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ لها إياها ،

والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ، ولولا أنا لطلّقك » .

والرسول ﷺ كان يسع نساءه بحلمه وبفضله .. لأنه كان يعرف طبائع النساء ، وما خلقهن الله عليه ... فكان يصفح وكان يعفو ...

ولكن إذا تجاوز ذلك الحدود كان يردهن بحزم إلى الطريق الصحيح ... وقد دفعت الغيرة حفصة إلى أن أفشت سراً لرسول الله ﷺ ... وهنا كان لابُدّ من الحزم ... فطلّق الرسول ﷺ « حفصة » .

وعلم عمر بذلك ، فاهتزت مشاعره ، وشعر ، وكأن سهماً غائراً اخترق قلبه ... لقد كان سعيداً بمصاهرة رسول الله ﷺ ، بالإضافة إلى قربه منه .. وقد وقع هذا الطلاق منه موقعاً أليماً ... وقال في نفسه مؤنباً راثياً لها :

« ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها » !!

ولم تطل الأزمة بعمر وابنته ... فقد أمر الله رسوله أن يراجع حفصة ، ونزل جبريل ليقول له :

« راجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة ، وإنها زوجتك في الجنة » .

وكم كانت فرحة حفصة غامرة ... وكم كانت فرحة عمر بذلك أشدّ وأكبر ..

وعاشت حفصة فى كنف النبى ﷺ ، تعيش لحظات النبوة

السامية ، وتتابع انتصار الرسول على أعدائه ، وتشاهد وتسمع علو راية الإسلام .

وعاشت « حفصة » لحظات قاسية مُرة بعد موت النبى ﷺ ، وتولى أبو بكر الخلافة ، وسار على هدى النبى ، ورعى أزواجه ، ورفع من مقامهن ، وعندما ثارت حروب الردة ، وقتل من المسلمين من قتل .. بدا لأبى بكر أن يجمع القرآن ، فجمعه من الصحف والرقاع ... وضم بعضه إلى بعض ، ولما عزم على حفظة مجموعاً ، وجال بفكره يتدبر المكان الذى يودعه والشخص الذى يأتمنه عليه ... وقع رأيه على أم المؤمنين « حفصة » .

يا له من فخر يمتد إلى أبد الآبدين ... كتاب الله المنزل هداية للبشرية إلى أن تقوم الساعة يُحفظ فى منزل « حفصة » .

وفي أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشر للهجرة ، توفي « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه ، أول الخلفاء الراشدين ، وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب ، بعهد منه .

وشهدت « حفصة » أمجاد أبيها ومآثره ، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده ...

إلى أن فُجعتْ وفُجعَ المسلمون كافة ، بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، بطعنات من خنجر أبى لؤلؤة المجوسى ، في ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة .

وترك أمير المؤمنين أمر الخلافة شورى لستة من كبار الصحابة ،

فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وفي عهده .. تم توحيد حرف المصحف ، ورسمه ، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين « حفصة » . ونسخت من المصحف العثماني عدة نسخ ، ووُزّعت على الأمصار الإسلامية الشاسعة .

وبعد مقتل ذى النورين ، عثمان بن عفان رضى الله عنه ، في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة ، بويع أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانت الفتنة الكبرى التى خرجت فيها السيدة عائشة مع مَنْ كرهوا بيعة الإمام على ، وقد عزمت على السيدة « حفصة » على الخروج معها ، فهمّت بأن تستجيب لها ، لولا أن ردّها أخوها « عبد الله بن عمر » عن الخروج فى تلك الفتنة .

وأقامت « حفصة » بالمدينة عاكفة على العبادة قوّامة صوّامة ، إلى أن صعدت روحها إلى بارئها ، في عهد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية ، وشيّعها أهل المدينة إلى مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن ورحم الله حفصة .

٥ ـ « زينب بنت خزيمة »

« رضى الله عنها »

هى أم للساكين ، لكرمها وجودها وعطفها على المساكين والفقراء ، فاستحقت لقب « أم المساكين » .

هى « زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبدالله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر ، الهلالية » . من بنى هلال ، وأمها « هند بنت عوف بن الحارث ابن حماطة ، الحميرية » وأختها ميمونة بن الحارث .

وتزوجت زينب بنت خزيمة من عبيدة بن المطلب ، الذى استشهد في بدر ، ثم تزوجها النبى ﷺ فى السنة الرابعة من شهر رمضان ، وما تزوجها النبى ﷺ إلّا بدافع الشفقة ، وكان زواجه بها زواجاً شكليًّا .

ولُقّبتْ بأم المساكين لكثرة إطعامها للمساكين ، وتصدُّقها عليهم ، وكانت مشهورة بالكرم والطيبة . والعطف على الفقراء .

وماتت في حياة النبى ﷺ بعد زواجها منه بثمانية أشهر ، ورقدت في سلام ، كما عاشت في سلام ، وصلى عليها النبى ﷺ ، ودفنها بالبقيع ، فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

والراجح أنها ماتت وعمرها ثلاثون سنة ، بعد حياة زوجية قصيرة ، كانت قانعة بها ، بما نالت من شرف الزواج بالنبى ﷺ ، وأمومة المؤمنين ، منصرفة عن شواغل الحريم ، بما كان يشغلها من أمر المساكين ، قانعة بحظها من تقدير النبى ﷺ ، لا يرهقها طمع ..

ولم يمت في حياة النبى ﷺ من أمهات المؤمنين ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى — ومدفنها بالحجون في مكة — والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية ، أم المؤمنين ، وأم المساكين .

٦ ـ « أم سلمــة »

« بنت زادِ الركب »

رضى الله عنها

المشيرة على رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية بالمشورة السديدة التى جمعت أمر المسلمين على طاعة نبيهم . فضربت مثلًا لرجاحة عقل الزوجة المسلمة .

اسمها « هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم » القرشية ، المخزومية .

أبوها رجل من أجاود قريش وسادتها المعدودين .. إنه أبو أمية سهيل بن المغيرة المخزومي ، لَقَّبه أهل مكة بزاد الركب ... إذ كان إذا خرج فى قافلة تكفَّل بزادها ... لا يقبل أن يخرج معه أحد بزاد ...

أمها عاتكة بنت عامر الكنانية ، من بنى فراس الأمجاد ، وكان جدها علقمة يلقب بجذل الطعان ... إذ كان فارساً معدوداً لا ينافسه أحد في الفروسية والحروب .

وزوجها عبد الله بن الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم الصحابي ذو الهجرتين ، ابن عمة المصطفى « **برة بنت عبد المطلب بن هاشم** »

وأم سلمة من بني مخزوم ، وهم ثالث ثلاثة قبائل في قريش كانت تتنافس الشرف ... بنو هاشم ، وبنو أمية وبنو مخزوم ...

وبنو هاشم وبنو أمية كان يجمعهم عبد مناف .

فكان بنو مخزوم يرون أنهم أحقُّ بالسيادة في قريش من عبد مناف ، ولهذا كان سادة بني مخزوم أشد الناس عداوة للإسلام وللنبي محمد ﷺ ، إذ نظروا إليه نظرة التنافس القَبَلي على السيادة والشرف .

وكانوا يرون أن محمداً ، وهو من بني عبد مناف ، قد أضاف شرفاً جديداً لقومه . وأنه بنبوته حقق التفوق المطلق لبني عبد مناف على بني مخزوم .

وكان التنافس بين بني مخزوم وبني عبد مناف شديداً فكان بنو مخزوم من أشد الناس عداوة للدعوة الإسلامية ، وذهب زعيمهم أبو جهل في هذا العداء كل مذهب حتى سماه الرسول ﷺ ، فرعون هذه الأمة حتى دعاه المسلمون بأبي جهل ..

ولم يمنع هذا العداء أبا سلمة « **عبد الله بن الأسد المخزومي** » من الدخول في الإسلام والإيمان بالله ، فقد كان ذا عقل ورأى سديدين ، فرأى أن الحق مع النبي ﷺ .

وكذلك « أم سلمة » زوجته كانت ذا عقل راجح ، فآمنت بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

ولقى أبو سلمة من قومه العنت ، فعذبوه ... وكذلك فعلت قريش مع كل من أسلم ، حتى أمرهم الرسول ﷺ ، بالهجرة إلى الحبشة ، فكان أبو سلمة وزوجته أول من هاجرا إلى الحبشة ... دار الهجرة .

وحاصرت قريش المسلمين في شِعْب أبي طالب .. وامتد الحصار ثلاث سنين ... وعانى المسلمون من هذا الحصار عناءً شديداً .

وعندما بلغهم فشل الحصار .. ظنوا أن قريشاً سترفع أذاها عن المسلمين ... فعاد بعض منهم إلى مكة ، وكان من بين العائدين أم سلمة وزوجها .

وعادت قريش سيرتها الأولى فى التعذيب والتنكيل والإيذاء ، بل إنها زادت فيه وبالغت ... حتى إنها تآمرت على قتل النبى ﷺ . وأعدوا خُطَّة لذلك .

وأمر الله رسوله بالهجرة إلى المدينة .

وأمر الرسول أصحابه بالهجرة ، وكان أبو سلمة وزوجته أول المستجيبين للهجرة .

وكانت قصة هجرتهما مأساة مثيرة أليمة الوقع .

مأساة تدل على تحجر قلوب أولئك الكفرة ، الذين ناصبوا رسول الله ﷺ ، ومَنْ معه أشدَّ العداء .

احتمل أبو سلمة ، وزوجته أم سلمة ، وابنها سلمة ، وخرجوا قاصدين المدينة .... مهاجرين فى سبيل الله ، فلما رآهم رجال بنى مخزوم ، اعترضوا طريقهم ، وقالوا له :

إلى أين يا أبا سلمة ؟؟

قال لهم : أهاجر من حيث الظلم إلى إخوان لى بالمدينة .

قالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها ... أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟؟

ولم يكن لبنى مخزوم من عطف وشفقة على صاحبهم أم سلمة وما كانوا ليعطفون عليها وهى قد فارقت دينهم ، وآمنت بمحمد عليه الصلاة والسلام .

ورأى جماعة من قوم أبى سلمة ما فعله قوم أم سلمة ، بابنهم فهرعوا يتساءلون ..

ماذا أنتم صانعون ؟ إياكم أن تمسُّوا أبا سلمة بسوء !

وتلاحم الفريقان .

لم يكن بأحد منهم عطف على أبى سلمة أو أم سلمة .

واشتد التلاحم بين الفريقين :

— والله لا ندع أبا سلمة يخرج بصاحبتنا ... إما أن يدعها أو نأخذها منه بالقوة ...

ولم ينتظروا جواباً بل أسرعوا إلى لجام البعير ، الذى تركبه أم سلمة وانتزعوه من يد أبى سلمة ، وأخذوا أم سلمة .

فغضب عند ذلك « **بنو عبد الأسد** » قوم أبى سلمة ، وثارت الدماء في عروقهم وقالوا في ثورة عارمة :

هذه صاحبتكم قد انتزعتموها من صاحبنا ... وإننا لا ننازعكم بها ولكننا لا نترك ابننا عندها أبداً .

وأسرع « بنو عبد الأسد » قوم أبى سلمة إلى الطفل ، وانتزعوه من حضن أمه .

ورفض بنو مخزوم « **قوم أم سلمة** » أن يغلبهم بنو عبد الأسد « **قوم أبي سلمة** » على ولد أم سلمة .. أليسوا هم أخواله ؟!

وأسرعوا إلى الصغير يريدون أن ينتزعوه من بنى عبد الأسد ... وتجاذب الفريقان الصغير ، وعلا الصراخ ... هذه أمه تبكى ... والصغير يصرخ ... واشتد التجاذب بينهم ، حتى نزع بنو مخزوم يد الصغير وذهبوا بهذا الجزء منه .

وانطلق بنو عبد الأسد بالطفل الجريح إلى ديارهم ، وعاد بنو مخزوم بأم سلمة إلى بيوتهم .

وانطلق أبو سلمة حزيناً على فراق ابنه ، وزوجته .. ووصل إلى

مهجره بالمدينة حيث كان ينتظر أخبار رسول الله ﷺ ، وأخبار ولده وزوجته الصابرة ، المجاهدة ...

ولم يكن بنو مخزوم في حاجة لأم سلمة .. ولكنهم أرادوا أن يظهروا عزتهم الجاهلية بما فعلوا .

ولم يكن بنو عبد الأسد في حاجة بالصغير ، ولكنهم قابلوا جاهلية بجاهلية ؟؟

ومرّ على فراق أم سلمة سنة ، وهي تعاني ألم الفراق المر .... فراق الزوج والابن .

وذات يوم مرّ على أم سلمة أحد أقاربها ، من بني مخزوم ، فرَقّ لحالها وأشفق عليها ، فقال لبني مخزوم :

ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرّقتُم بينها وبين زوجها وبين ابنها ، وما زال بهم ، حتى قالوا لها :

الحقي بزوجك إن شئت .

وعندئذ .. رد بنو عبد الأسد لأم سلمة ابنها . ولحقت أم سلمة بزوجها بالمدينة بعد فراق ومعاناة ، امتدت سنة ...

معاناة في سبيل الله ، والثبات على العقيدة .

وأقام رسول الله ﷺ في المدينة ، دولة إسلامية ، فكانت أيامه ، وأيام الصحابة كلها جهاد ... وجاهد أبو سلمة في الله حق جهاده ، فخاض غمار الحروب واصطلى بنارها ...

وفي المدينة .. عكفت أم سلمة على رعاية صغارها ، وتربيتهم على الدين الحنيف .

وكانت أم سلمة لزوجها نعم الزوجة ، تُهيِّئُ له السكن كلما عاد متعباً مجهداً من ميادين القتال .

وكان أبو سلمة مُحبّاً لأم سلمة ، وكانت أم سلمة محبة لزوجها .

وفي ذات يوم .. جلست أم سلمة بجوار زوجها ، بعد أن عاد من إحدى المعارك وأخذت تتبادل معه أحاديث المحبة والمودة ، حتى قالت له : « بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة ، وهى من أهل الجنة ثم لا تتزوج بعده إلا جمع الله بينهما في الجنة ... وكذلك إذا ماتت المرأة وبقى الرجل بعدها ... فتعال أعاهدك ألا تتزوج بعدى ولا أتزوج بعدك » .

ونظر أبو سلمة إلى زوجته المحبة بحنان وعطف ، وقال لها : أتطيعيني يا أم سلمة ؟

قالت : ما استأمرتك إلّا وأنا أريد أن أطيعك .

قال : فتزوجى

وصمت قليلا ثم قال : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً منى ، لا يحزنها ولا يؤذيها ، وزادت محبة أبي سلمة في قلبها ، ودعت له بطول البقاء .

وجاءت معركة أحد .. وأصيب فيها أبو سلمة بجراح غائرة ... والتمس أبو سلمة لجرحه الدواء ... فالتأم الجرح .

وواصل أبو سلمة بعد ذلك الجهاد ..

وبعد معركة أحد بشهرين بلغ النبى ﷺ ، أن بنى أسد يدعون إلى مهاجمته في المدينة ، فدعا الرسول عليه الصلاة والسلام أبا سلمة وأمره في سرية ، وأرسله إلى بنى أسد « **الذين كانوا يعدون لغزو المدينة** » ، ومعه مائة وخمسون رجلاً منهم « **أبو عبيدة بن الجراح** » ، وسعد بن أبى وقاص ..

وأغار عليهم أبو سلمة ... وشتت شملهم جميعاً ، ثم رجع هو وأصحابه إلى المدينة سالمين ، غانمين ، فقد أعادوا بعض ما ضيعت « **أُحد** » من هيبة المسلمين ، ونفّذوا ما أمرهم به النبى ﷺ ، من أخذ العدو على غفلة ، فأحاطوا بهم فى عماية الصبح على غير استعداد منهم للقتال ، وانتصروا عليهم .

ودخل أبو سلمة بيته ، فاستقبلته كما تعودت أن تفعل معه ، كلما عاد من غزوة غزاها ... ولكنها لاحظت عليه هذه المرة الإعياء والتعب ، فسألته ... وعرفت أن جرحه يوم أُحد قد انتقض عليه .

ومرض أبو سلمة واشتد به المرض ، وعندما شعر بدنو أجله قال لأم سلمة : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « **إذا أصاب أحدكم مصيبةٌ فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتى فآجرني فيها ، وأبدلنى بها ما هو خير منها** » .

يا أم سلمة إذا مِتُّ فاعتصمي بهذا الدعاء .

ثم أغمض عينيه ، وقال : « **اللهم اخلفني في أهلي بخير** » .

وانتقل أبو سلمة إلى الرفيق الأعلى .. وبكته أم سلمة ..

ودعت قائلة : « **إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتي ، فآجرني فيها** ...

وعندما أرادت أن تقول : وأبدلني بها خيراً منها .

قالت لنفسها : ومن خير من أبي سلمة ؟ وترددت قليلا ... وتذكرت وصية زوجها لها ، فقالت : اللهم أبدلني بمصيبتي خيراً منها ...

وحضره النبي ﷺ ، وهو على فراش موته ، وبقى إلى جانبه يدعو له بالخير ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبَّر عليه تسع تكبيرات . قيل له : يا رسول الله : أسهوت أم نسيت ؟ فقال :

« **لم أسهَ ولم أنسَ ، ولو كبرت على أبي سلمة ألفاً ، كان أهلاً لذلك** » .

وانتظر كبار الصحابة حتى انتهت عِدَّة أم سلمة ، فتقدم إليها منهم « **أبو بكر الصديق** » خاطباً ، فرفضت في رفق .

وتلاه عمر بن الخطاب خاطباً فرفضته أيضاً في رفق .

ومن بعدهما ، بعث اليها النبي ﷺ ، يخطبها ، فتمنت لو يتاح لها هذا الشرف العظيم ، ولكنها أشفقت على النبي ﷺ — لأنها

تجاوزت سن الشباب ، ومعها عيال صغار أيتام ، وأنها شديدة الغيرة .

وأرسلت إلى النبى ﷺ ، تعتذر وتقول : إنها غَيْرى ، مُسنة .. ذات عيال ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **أما قولك إنى امرأة مسنة ، فأنا أسنُّ منك ، ولا يعاب على المرأة أن تتزوج أسن منها ... وأما قولك إنى أم أيتام ، فإن كلهم على الله وعلى رسوله ... وإما قولك إنى شديدة الغيرة فإنى أسأل الله أن يذهب ذلك عنك** » .

وأبدل الله أم سلمة من هو خير من أبى سلمة .

وتزوجت سيد البشر ، وأصبحت أماً للمؤمنين .

وكان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ في بيت « **عائشة** » رضى الله عنها فتباهى بذلك ضرائرها ، حتى جاءت « **أم سلمة بنت زاد الركب** » فكان مما أوحى إليه وهو عندها قوله تعالى ، في سورة التوبة : ﴿ **وآخرونَ اعترفُوا بذنوبهم خلطُوا عَملاً صالحاً وآخرَ سيئاً عسَى الله أنْ يتوبَ عليهم إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ** ﴾ (التوبة : ١٠٢)

وأكملت أم سلمة طريق الجهاد مع رسول الله ﷺ ، فصحبته في غزوة خيبر ، وفي فتح مكة ، وفي غزوة هوازن ، وثقيف ، وحصار الطائف ، ثم في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة .

وكانت تعد له في جميع غزواته كل ما يُؤمِّن له الراحة والسكينة ، وحضرت أم سلمة مع رسول الله ﷺ ، غزوة الحديبية ، وحضرت

هذه الوفود التى كانت تأتي وتذهب بين يدى رسول الله وسادة قريش ، سعياً وراء حقن الدماء التى كان رسول الله حريصاً عليها .

وبعد مفاوضات عديدة .. استقر الرأى على توقيع صلح بين المسلمين وقريش ، ورأى كثير من المسلمين أن شروط هذا الصلح فيها ظلم للمسلمين . حتى جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ وقال له : ألسْتَ نبى الله حقاً ؟ قال : بلى

قال عمر : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟

قال رسول الله : بلى .

قال عمر : فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟

قال رسول الله ﷺ :

إنى رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصري . وبعد ذلك قال رسول الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا .

قالها ثلاث مرات ... فما قام منهم رجل واحد !!

يقول رسول الله ﷺ لعمر على مسمع من سائر الصحابة :

إنى رسول الله ﷺ ، ولست أعصيه ، إشارة منه — عليه السلام — أن ما صنعه أمرٌ من الله ... ووحى من السماء .

ومع ذلك عصا القوم رسولهم ، من شدة غيظهم ، فلم ينفذوا أمره حين أمرهم بالنحر والحلق ..

ولما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه .. دخل على زوجته أم سلمة ، يشكو لها ما لقى من أصحابه ..

قالت أم سلمة : يا نبى الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك .

واستمع رسول الله ﷺ إلى مشورة أم سلمة ، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه ..

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً .

كانت هذه مشورة أم سلمة ، في مرحلة حرجة وفاصلة فى تاريخ المسلمين ، وكانت مشورتها فى مكانها ... فهى تعلم مدى حب الصحابة لرسول الله ، وتعلم أن عدم طاعتهم كان من شدة حبهم لعقيدتهم ، وحرصهم على ألا يوقعوا على ما يكون فيه الدنية فى دينهم — كما حسبوا ذلك فى شروط صلح الحديبية — وكانت مشورتها نابعة من معرفتها بانقياد الصحابة لرسولهم ، وكان رأيها فى محله ، فما إن رأى الصحابة رسولهم ﷺ يذبح ويحلق حتى بادروا إلى ذلك .

بركة من بركات أم سلمة ، الزوجة البارة الصالحة التى كافأها الله على إيمانها بدينها وصبرها على ما لاقت فى سبيله من بلاء ، ومن فرط حبها وإخلاصها لزوجها ، أن جعلها أماً للمؤمنين وسيدة من سيدات المسلمين ، تشير على رسول الله ﷺ فيعمل بمشورتها .

وعاشت أم سلمة بعد موت الرسول ﷺ ، وتقدّم العمر بها حتى امتحنت ، كما امتحن الإسلام وأمته بمذبحة « كربلاء » ومصرع الإمام الحسين سيد الشهداء وبعض من آل البيت على الساحة المشئومة .

وتوفيت رضى الله عنها بعد ما جاءها نعى « الحسين بن على رضى الله عنهما » فى سنة تسع وخمسين للهجرة ، وصلى عليها « أبو هريرة » رضى الله عنه وشيّعها المسلمون إلى البقيع ، أم سلمة بنت زاد الركب ، آخر من ماتت من أمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن .

٧ ــ زينب بنت جحش

« رضى الله عنها »

زوَّجها الله لرسوله ﷺ ، فكان هذا فخراً لها زادها عِزّاً ، وكانت تتفاخر بهذا على باقى صويحباتها وزوجات رسول الله ، وكانت أطولهن يداً فى الصدقة والكرم .

هى « **زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية** » الشابة الشريفة الحسناء ، من بنى أسد بن خزيمة المضرى ، وحفيدة عبد المطلب بن هاشم ، أمها « **أميمة بنت عبد المطلب** » **عمة النبى** ﷺ .

أسلمت « زينب » **وآل جحش جميعاً في وقت مبكرة وقد أضافوا بإسلامهم وتسجيل أسرتهم كلها فى سجل الإيمان ، شرفاً إلى شرف .**

هاجرت زينب إلى المدينة المنورة برسول الله ﷺ مع مَنْ هاجر من أهلها ، وكانت قد بلغت سن الزواج ، وغدت شابة يتطلع إليها السادة والأشراف ، وهى بالإضافة ــ إلى شرف المحتد ــ

ذات جمال يتحدث به من عرفها من النساء والرجال .

وكان زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ ،من أقرب الناس إلى قلبه ، وما كان « زيد » عبداً بل هو « زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى » من بنى زيد اللات ، خرجت به أمه « سعدى بنت ثعلبة » لتزور أهلها بنى معن بن طيء ، فأصابته خيل من « بنى القين بن جسر » ، فباعوه فى سوق من أسواق العرب ، وكان « حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى » تاجر الرقيق ، هو الذى اشتراه .

وكانت السيدة خديجة رضى الله عنها ، يومئذ زوجة سيدنا محمد ﷺ ، فجاءت تزور ابن أختها « حكيم بن حزام الأسدى » فعزم عليها أن تختار من تحب من الغلمان ، فأخذت « زيداً » ، ورآه سيدنا محمد ، عليه الصلاة والسلام فاستوهبه منها ، فوهبته له راضية .

وكان أبوه « حارثة بن شراحيل » قد حزن عليه أشد الحزن ، فخرج يبحث عنه في كل مكان حتى عرف مكانه في مكة ، فانطلق مع أخيه « كعب » قاصدين مكة ، وعندما وصلا إلى البيت العتيق ، وجدا سيدنا محمداً هناك ، فقالا له :

« يا ابن عبد الله ، يا ابن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، تفكون العاني ، وتطعمون الجائع ، وقد جئتك في ابننا ، فتحسن إلينا في فدائه » .

قال : « **أو غير ذلك ؟** » .

قالا : « **ما هو ؟** » .

أجاب : « **أدعوه وأخَيِّرهُ ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارني فو الله ما أنا بالذى أختار على من أختارنى أحداً** » .

قالا : « **قد زدت على النصفة** » .

ودعا زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخيَّره سيدنا محمد :

إن شاء ذهب معهما ، وإن أحب أقام معه . فاختار سيده !!

وتوسل إليه أبوه :

« **يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟** » .

فتماسك زيد وقال :

« **إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ، وما أنا بالذى أفارقه أبداً** » .

فعند ذلك أخذه سيدنا محمد من يده ، وقام به على الملأ من قريش فأشهدهم أن زيداً ابنه ، وارثاً وموروثاً .

وسُمى الغلام « **زيد بن محمد** » .

وكان زيد من الأربعة الأوائل السابقين إلى الإسلام .

وعندما آخى النبى ﷺ بين أصحابه المهاجرين ، كان زيد وحمزة بن عبد المطلب الهاشمى ، أخَّيْن .

فلما بلغ « زيد » سن الزواج .. اختار له النبى ﷺ بنت عمته « **زينب بنت جحش** » .

واختار رسول الله ﷺ ، لِحِبِّهِ زيد ابنة عمته ، زينب بنت جحش ... اختار رسول الله ﷺ لزيد خادمه ، شريفة من شريفات مكة ، وسيدة من سيدات المجتمع الرفيع ..

واستهجن الناس أن يتزوج الخادم من الشريفة ، فما عَهِدَهم في جاهليتهم أن يحدث هذا ، بل ما فكر أحد أن يحدث مثل هذا ذات يوم .

وكرهت زينب وكره أخوها « **عبد الله بن جحش** » أن تزف الشريفة المضرية إلى المولى ، رغم أصله العربى الصريح أباً وأمّاً ، حتى نزل فيهما قوله تعالى :

﴿ ومَا كانَ لمؤمنٍ ولَا مؤمنةٍ إذَا قضَى الله ورسولُه أمراً أنْ يكُونَ لهم الخيرةُ من أمرِهِمْ ، ومَنْ يعْصِ الله ورسولَهُ فقدْ ضَلَّ ضلالًا مبيناً ﴾

(الأحزاب : ٣٦)

وتزوجت « **زينب** » زيداً ... طاعةً لأمر الله ورسوله ، وإلزاما بالمبدأ الإسلامى : لا تفاضل بين الناس في الإسلام إلّا بالتقوى .

لكن حياة الزوجين لم تَصْفُ لهما ، فما نسيت « **زينب** » قط أنها

الشريفة التي لم يجر عليها رق، ولا تخيلت أبداً أنها ستكون في يوم من الأيام زوجة لمولى .

وقاسى زيد من معاملة زينب القاسية له ، وصدها له باستمرار ، ما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ ، فكان الرسول يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال .

وعندما حدَّثها النبى ﷺ ، عن زيد وحبه له ، وتقدمه بالإسلام وإخلاصه لله ورسوله قالت زينب :

« **يا رسول الله ... لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش** » .

فقال لها رسول الله ﷺ : « **فإني قد رضيته لكِ** » .

وأذعنت زينب لأمر رسول الله ﷺ ، وأذعن بنو جحش لأمر الله ورسوله » . وعرف الناس أن هذا الزواج بأمر السماء .

ولكن لم يقدر الله لهذا الزواج أن يتأسول رلله ﷺ ، وأذعن بنو جحش لأمر الله ورسوله ... وعرف الناس أن هذا الزواج بأمر السماء .

ولكن لم يقدر الله لهذا الزواج أن يتأسول الله ﷺ ، وأذعن بنو جحش لأمر الله ورسوله ... وعرف الناس أن هذا الزواج بأمر السماء .

ولكن لم يقدر الله لهذا الزواج أن يتآلف ... فزينب تزوجت بزيد امتثالاً لأمر الله ورسوله ، وزيد يشعر بأن زوجته لا تُكِنُّ له حُبّاً ، وأن زواجها منه كان رغماً عنها .

كان هذا الإحساس يُعذّبه ويُؤنبه ... فكان يود إنهاء هذا الزواج ... وكان يفضي بمكنون قلبه لرسول الله ﷺ ، وفي كل مرة يقول له الرسول : « **أمسك عليك زوجك** » .

وشاء الله تعالى وفارقها زيد ، وتزوجها ابن خالتها ، ﷺ ، بأمر الوحى .

وما كان رسول الله ﷺ ، ليخالف أمر الله ، وأعلن الرسول ﷺ ، أن الله أمره أن يتزوج من زينب ...

وتحدث الناس أن محمداً ﷺ سيتزوج من مطلقة ابنه ... ألم يكونوا يدعونه زيد ابن محمد ؟؟..

ونزلت آيات الكتاب المبين تبين حكماً جديداً ... ما كان للابن المتبنى حكم الابن من الصلب ، ما كان يجوز في شرع الله أن يُدْعى الإنسان إلا لأبيه الذى ولده ...

وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى ، بشكل ليس هناك شكل أبلغ في الإبطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابناً ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين لهو أدعى لقبولهم .

ولم يَبْقَ مجال لقول مع قوله عز وجل في آية الأحزاب :

﴿ وإذْ تقولُ للذى أنعمَ الله عليه وأنعمتَ عليه أمسِكْ عليكَ زوجَكَ واتقِ الله ، وتُخفى في نفسك ما الله مُبديه وتخشَى الناسَ والله أحقُّ أنْ تخشَاهُ ، فلمَّا قضَى زيد منها وَطراً زوَّجناكَهَا لكى لا

يكون على المؤمنين حَرجٌ في أزواج أدعيائهمُ إذَا قَضَوْا منهن وَطراً ، وكان أمرُ الله مفعُولاً ﴾.

(الأحزاب : ٣٦)

وتزوج رسول الله ﷺ زينب ، وصار الناس يدعون زيداً لأبيه .. زيد بن حارثة ...

أيّ شرف هذا الذى حازته زينب ... زواج بأمر السماء ... وقرآن يتلى ، وكانت زينب مدركة لهذا الشرف العظيم الذى حازته ، وكانت تتفاخر به على نساء النبى ، وقالت لرسول الله يوماً :

« يا رسول الله ، إني والله ما أنا كأحد من نسائك ، ليست امرأة من نسائك إلا زوَّجها أبوها أو أخوها وأهلها غيرى ، زوجنيك الله من السماء » .

واحتفل رسول الله ﷺ بزواجه من زينب ... فأولم بشاة ... ودعا كل من في المسجد ، ثم كل من بالمدينة إليها أكلوا .... وبارك الله فيما أكلوا ...

وأنزل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك قرآناً ... ينظم طرفاً من حياة المسلمين الاجتماعية ... ثم يفرض الحجاب على أزواج النبى وعلى المسلمات .

أيُّ بركة وأيُّ خير أتانا من هذه الزوجة الورعة التقية الصالحة !!

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى في بيت زينب قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لَا تدخلُوا بيوتَ النبيِّ إلَّا أَنْ يُؤذنَ لكُم إلى طعامٍ غيرَ ناظرِينَ إنَاهُ ولكنْ إذَا دُعِيتم فادخلُوا ، فإذَا طَعِمْتُم فانتشِرُوا ، ولَا مُستأنسِينَ لحديث ، إنَّ ذلكُمْ كانَ يؤذِى النبيَّ فيستَحْيى منكُم ، واللهُ لا يستحيى من الحقِّ ، وإذَا سَألتمُوهُنَّ مَتاعاً فاسألوهُنَّ من وراء حجابٍ ، ذلكُمْ أطهرُ لِقلوبكُمْ وقُلوبهِنَّ ، وما كان لكُمْ أنْ تؤذوا رسول الله ولا أنْ تنكحُوا أزواجه مِنْ بعدهِ أبداً ، ذلكُمْ كانَ عند الله عَظيماً ﴾

(الأحزاب : ٥٣)

وعاشت زينب فى كنف رسول الله ﷺ ، وكانت منصرفة إلى عبادتها ، تكثر منها ، ولم يعرف عنها أنها دخلت فيما كان بين أزواج النبى من منافسة تدفعها الغيرة الفطرية بين النساء ، فقد كفاها إيمانها ثم جمالها وحب الرسول لها .

وشغلت وقتها بعد العبادة برعاية الفقراء والمساكين ، فقد كانت زينب امرأة صنَّاع ، تجيد صناعة الدباغة والخرز ، فكانت تدبغ وتخرز وتتصدق بكل ذلك فى سبيل الله ...

ثم إن زينب ـــ رضى الله عنها وأرضاها ـــ وكذلك أمهات المؤمنين ، كُنَّ يحرصن كل الحرص على القرب من الرسول حياً وميتاً يتنافسن في ذلك ويبالغن في التنافس .

وعندما توفي النبى ﷺ ، كانت نساؤه يجتمعن ثم يتذارعن ... تقيس المرأة ذراع الأخرى ليعرفن أيُهنَّ أطول باعاً ، وأيهُنَّ أسعد بلحوقها برسول الله ﷺ .

نعم كل واحدة منهن تتمنى أن تكون أسرع من الأخرى لحوقاً برسول الله ..

وكان أول من لحق من نسائه زينب بنت جحش .

ولم تكن زينب أطولهن ذراعاً ... ولكنها كانت أطولهن باعاً في الصدقة ... أكثرهن تصدقاً ...

وعندما توفيت زينب بنت جحش ، صلى عليها أمير المؤمنين « **عمر بن الخطاب** » ودفنت بالبقيع في المدينة .

وعندما دفنت زينب قالت عائشة عنها : « **لقد ذهبت حميدة فقيرة .. ففزع اليتامى والأرامل ...** » .

٨ ـ « جويرية بنت الحارث الخزاعية »

« رضى الله عنها »

كان زواجها من رسول الله ﷺ فضلاً وبركة نزلت على قومها أجمعين فأنجاهم من الأسر والرِّق .

هى « **جويرية بنت الحارث** » زعيم اليهود فى قبيلة بنى المصطلق ، كانت تقيم بجوار المدينة ، وكانت هذه الفئة من اليهود قد نقضوا عهداً سبق إبرامه مع الرسول ﷺ ، فسار إليهم النبى بجيش جرّار في السنة السادسة للهجرة ، وقضى على أولئك القوم ، وعاد بنصر الله يحمل أموالاً طائلة وسبايا كثيرة من يهود بنى المصطلق .

ولما وصل الرسول ﷺ ، والمسلمين إلى المدينة .. أخذ يوزع تلك الغنائم والسبايا ، فوقعت جويرية من نصيب أحد المسلمين ، ويدعى « **ثابت بن قيس** » ، الذى عرض عليها أمر افتدائها مقابل تسع أوقيات من الذهب ، لأنه كان واثقاً من أنها قادرة على دفع هذا المبلغ ، لأنها بنت سيد بنى المصطلق ومن أغنياء اليهود ، كاتبته على نفسها بهذا المبلغ ويطلق سراحها ، فرفض إلا أن يستلم أولاً الفدية ،

ولما كانت جويرية ليس معها ما تفتدى به نفسها ، فذهبت إلى رسول الله ﷺ ، وقالت له :

« يا رسول الله أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء مالم يَخْفَ عليك ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على أمرى » .

فرقَّ قلب النبي ﷺ للعربية الخزاعية ، بنت سيد المصطلق وتأثر لحالها ، وأخذته شهامته العربية لينقذ سيدة جاءت تستنجد به ليخلصها من عار السبي والرق بما يدفعه من مال فداء لها .

ووردت على النبي ﷺ في تلك اللحظة ، خواطر سماوية فيها الخير والعطف والسياسة الحكيمة، فقال لها : **« هل لك في خير مما طلبت ؟ » .**

سألته في لهفة وحيرة :

« وما هو يا رسول الله ؟ » .

قال لها الرسول ﷺ :

« أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك » .

فتألق وجهها الجميل بالفرحة ، وقالت وهي لا تكاد تصدق، أنها قد نجت من الضياع والذل :

« نعم يا رسول الله !! » .

قال عليه الصلاة والسلام :

« قد فعلت !! » .

وكان قبولها الزواج من النبى عن رجاحة عقل ، وكانت هذه المفاجأة غريبة ، ولكنها جرّت بركات على بنى المصطلق والمسلمين ، فما سمع المسلمون بزواج رسول الله ﷺ ، من « **جويرية** » حتى أطلقوا أسرى بنى المصطلق جميعاً من رجال ونساء ، إكراماً لمصاهرة الرسول ﷺ ، لهم ، وكان في ذلك فتحاً مبيناً ، فأسلم أكثرهم وكسب المسلمون بهذا الزواج أكثر مما كسبوه بغلبة الحرب منهم .

ودخلت العروس بيت النبى ﷺ ، ودخلت في الدين الإسلامي وأصبحت من أمهات المؤمنين ، وكان فضل هذه الأسرة الحسناء على قومها موضع الفخار الدائم بينهم ، ولقد كانت جويرية على جانب كبير من الجمال فى العشرين من عمرها ، يوم أن تزوجها النبى ، وقد كانت متزوجة من أحد أقاربها اليهود ، ويدعى « **مسافع بن صفوان بن المصطلق** » الذى قتله المسلمون يوم غزوهم لبنى المصطلق .

وظلت « **جويرية** » ما عاشت ، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيت فيها النبى ﷺ ، فنجت فيها من العار ، وأعتقت قومها من الأسر ، وكرمت بالزواج من سيد البشر .

ولقد ظلت « **جويرية** » فى بيت النبى ﷺ ، وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام حتى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وتوفيت إلى رحمة الله بعد سنة الخمسين الهجرية ، ودفنت مع أمهات المؤمنين في المدينة بالبقيع ، وصلى عليها « **مروان بن الحكم** » أمير المدينة وكانت قد بلغت من العمر سبعين سنة .

لقد كان زواج رسول الله ﷺ ، من « جويرية » اليهودية فيه تشريع للمسلمين في إباحة الزواج من اليهوديات ، حتى ولو بقيت على دينها بعد الزواج .

ويعتبر ذلك زواجاً سياسياً عظيم الأثر ، كثير الفائدة بجانب أنه تشريع للزواج من أهل الكتاب ، وكان ذلك بفضل شجاعة وتصرف السيدة جويرية بذكاء وحذق ولباقة .

٩ ـ « صفية بنت حُيى »

« رضى الله عنها »

اصطفاها رسول الله بعد هزيمة قومها اليهود وهى أبنة زعيمهم ، وأدخلها فى كنفه فكان رمزاً لسعة هذا الدين وبرّة بغير المسلمين .

هى « **صفية بنت حُيى بن أخطب** » عقيلة بنى النضير ، التى ينتهى نسبها إلى هارون أخى موسى عليهما السلام ، أمها برة بنت شموال القرظية .

ولم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها ، ولكنها رغم صغر سنها ، تزوجت مرتين ... تزوجت أولاً من فارس قومها وشاعرهم « **سلام بن مشكم القرظى** » ثم تزوجها بعد ذلك « **كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق** » صاحب حصن « **القموص** » ، أعز حصن في خيبر .

وقد فتح المسلمون هذا الحصن بعد نضال عسير ، وجيء بكنانة حيًّا ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله النبى ﷺ عنه ، فأنكر أنه يعرف مكانه ، فقال له النبى ﷺ :

« أرأيت إن وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ » قال : نعم ...

فلما اكتشف المسلمون مخبأ الكنز عنده ، دفعه النبى ﷺ إلى « محمد بن مسلمة الأنصارى البدرى » فقتله .

ففي محرم سنة سبع هجرياً ، تهيأ النبى ﷺ لحرب اليهود ، بعد أن كشفت موقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يُبيِّتُونَ للإسلام من شرٍّ وغدر .

وخرج النبى ﷺ في النصف الثانى من محرم إلى معقل اليهود (خيبر) فلما أشرف عليها ، قال :

(الله أكبر ، خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين) وفتح المسلمون أعز حصن فى خيبر وهو حصن القموص ، وقُتل صاحبه كنانة وقتل رجال بنى النضير ، وسبى نساؤها ، وفي مقدمتهن عقيلة بنى النضير « صفية بنت حيي » وابنة عم لها ، يقودهما « بلال » مؤذن النبى ﷺ .

ومرَّ بهما بلال على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود ، فهمَّت صفية أن تصيح ، لكن الصيحة احتبست فى فاهها لا تنطلق .

وأما ابنة عمها فصرخت ، ولطمت وجهها ، ووضعت التراب على رأسها ... وجيء بهما إلى النبى ﷺ :

« صفية » فى حزنها الصامت ، تحاول أن تتماسك في ترفُّع وكبرياء أمام النبى ﷺ ، أما ابنة عمها فقد كانت منكوشة الشعر ،

مُعفَّرة بالتراب ، ممزقة الثياب ، لا تكف عن العويل والبكاء ، فعندما رآها النبى ﷺ قال وهو يبعد وجهه عنها :

« أغربوا عنى هذه الشيطانة » .

ثم اقترب من صفية ، وقد بدا عليها أنها راغبة في أكثر من حماية النبى الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة ، وهو يقول لبلال : **« أنزعت يا بلال منك الرحمة ، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما » .**

ثم أمر صفية أن تركب خلفه وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك إعلاماً بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه .

وتزوجها النبى ﷺ ، وهناك خارج القبة التى دخل فيها عليها ، بات رجل من الأنصار وهو : **« أبو أيوب خالد بن زيد »** يقظان ساهراً ، متقلداً بسيفه ، يتجول حول القبة من غير علم الرسول ﷺ ، فلما أصبح النبى ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله :

« مالك يا أبا أيوب ؟ » .

أجاب رضى الله عنه :

« يا رسول الله ، خِفْتُ عليك من هذه المرأة ، قد قتلْتَ أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخِفْتُها عليك » .

فيرى أن رسول الله ﷺ دعا له قائلاً :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » .

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد الفعلة الشنعاء لامرأة من يهود خيبر ، وهي : « زينب بنت الحارث » امرأة سلام بن مشكم ، أحد زعماء اليهود .

دخلت زينب على الرسول ﷺ ، وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ، ووقّعوا الصلح مع النبى ﷺ ، فأهدت إليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ؟ قيل لها : الذراع ، فأكثرت السُّم في الذراع حتى سرى منها إلى سائر الشاة .

ووضعتها بين يدى النبى ﷺ ، وكان معه صاحبه « بشر بن البراء » ، فتناول النبى ﷺ الذراع ، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب .

لكن النبى ﷺ لم يسغ الذراع ، بل لفظها وهو يقول : « **إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم** » .

ودعا بامرأة سلام ، فاعترفت بأنها سمَّتْ الشاة متعمدة ، ولما سألها ﷺ ، عما حملها على فعل ذلك ، ردت :

« **بلغتَ من قومي ما لا يخفى عليك ، فقلت : إن كان نبياً فسيخبر ، وإن كان ملكاً استرحت منه** » .

فتجاوز عنها ﷺ ، ومات « **بشر بن البراء** » رضى الله عنه من أكلته التى أكلها ...

فلعل « **أبا أيوب الأنصارى** » ذكر هذه اليهودية ، حين بات

ساهراً حول القبة التى دخل فيها ﷺ على « صفية » عقيلة بنى النضير .

وانتقلت العروس إلى بيت النبى ﷺ ، وعاشت في بحبوحة من العيش لا يكدر صفوها شيء .

وبعد موت النبى ﷺ ظلت صفية في بيت الرسول بين نسائه إلى أن توفيت سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ، ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

١٠ ـ « أم حبيبة »
« رملة بنت أبى سفيان »
رضى الله عنها

كرهت أن يجلس أبوها الكافر على فراش رسول الله ﷺ فاستحقت الفضل والتكريم بعدما لاقته فى الحبشة من رِدَّة زوجها .

هى « **رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية** » ابنة أبى سفيان وسيد مكة المطاع ، وزعيم مكة ، وقائد المشركين .

إنه الرجل الذى وقف في وجه الدعوة الإسلامية حسداً من عند نفسه أن آتى الله النبوة رجلاً ليس من بنى عبد شمس ذويه .

وهو الرجل الذى تولى قيادة جبهة الكفر في مواجهة جبهة الإيمان .

وأم حبيبة هى زوجة عبيد الله بن جحش الأسدى ، ابنة عمة المصطفى ... الرجل الذى فارق دين قومه في الجاهلية ، واعتنق النصرانية ، ثم آمن عندما جاء الله بالإسلام به ، وأسلمت معه

« **رملة** » ، وظل أبوها « **أبو سفيان** » على الكفر ، وكذلك أمها « **صفية بنت أبى العاص الأموية** » .

وخشيت « أم حبيبة » أذى أبيها ، فهاجرت بدينها مع زوجها ، في الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وهى حامل ، وتركت أباها « **بمكة** » وقد جن غيظه وقهره ، أن أسلمت ابنته وليس إليها سبيل . وهناك في الحبشة وضعت « **رملة** » بنتها « **حبيبة بنت عبيد الله** » التى كُنيتْ بها أمها .

وفي الحبشة .. التقي عبيد اللهِ بمنِ كان على دينهم من قبل ... التقى بالنصارى الذين دعوه للعودة إلى النصرانية ..

ولعله رأى ما كان عليه المسلمون من فقر ، ورأى ما كان عليه النصارى من بحبوحة فى العيش وسعة فى الرزق ... ففضّل العافية على الجهاد ... فارتد عن دين الإسلام ، وعاد إلى النصرانية دين الأحباش .

وهو في ارتداده إلى النصرانية أحب أن تتبعه زوجته أم حبيبة .. أليست النساء تبعاً للرجال في كل شيء ؟

قال عبيد الله لأم حبيبة : يا أم حبيبة قد رجعت إلى النصرانية ، فهل لَكِ أن تفعلى كما فعلت ؟

قالت أم حبيبة وقد هالها ما سمعت ، وفَزِعَت فزعاً شديداً : والله يا عبيد الله ما خير لك ...

وحاولت أن ترده إلى رشده فما رشد . ففيم كانت هجرة عبيد

الله إذن ، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وها هو ذا يرتد عن دين الإسلام الذى من أجله احتملت « رملة » كل ذلك ، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم ؟

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه ، وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته ، دفاعاً عن ديانة وجدوا آباءهم عليها من قديم الزمان .

أما أن يكفر بهذا كله ، ويرضى بالإسلام ديناً ليجىء إلى الحبشة فيكفر بالدين الإسلامي ، ويستبدل به ديناً غريباً لقوم غرباء ، في يسر ودون حرج ، فأية مهانة وأى عار !!

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب المرتد ، وقد وَلدت ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلها ديانات شتى ، فأبوها نصرانى ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الإسلام !!

وأكبَّ عبيد الله على الخمر يشرب منها حتى مات .

أما أم حبيبة « رملة » فقد اعتزلت الناس ، شاعرة بالخزى والعار لفعلة الرجل الذى كان لها زوجاً ، ولطفلها ولداً ..

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها الحبيبة ، مضاعفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها ، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حرباً شرسة على النبى الذى صدّقته وآمنت به .

وعندما وصل خبر هذه الفاجعة المؤلمة إلى النبي ﷺ ، أسرع إلى جَبْر ما انكسر من فؤاد هذه المرأة المؤمنة .

استدعي النبي ﷺ إليه ساعيه « عمرو بن أمية الضمري » وأرسله إلى النجاشي ملك الحبشة ، يطلب منه أن يُزَوِّجه من أم حبيبة ..

ونفذ النجاشي ما أمره به رسول الله ﷺ ، وأرسل إلى أم حبيبة بالخبر مع إحدى جواريه ..

ونزل الخبر بَرْداً وسلاماً على فؤاد أم حبيبة .

وشعرت بأن هماً كبيراً قد انقشع عن فؤادها وأن جبلاً عظيماً قد انزاح عن كاهلها ، فنزعت سوارين لها من فضة وقدمتهما للجارية حلاوة البشرى .

واستدعى النجاشي مَنْ عنده من المسلمين ، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبي طالب ، وخالد بن سعيد ، وأعلمهم بالذي أمره به رسول الله ﷺ ، وتهللت وجوه المسلمين من الفرحة ، وتهلل من بينهما وجه « **خالد بن سعيد بن العاص** » أكثر مما تهللت به سائر الوجوه ... فقد كان في هم كبير ، إذ كان يرى ابنة عمه في ضيق شديد ، ولا يستطيع أن يفعل لها شيئاً ، سوى أن يواسيها ببعض الكلمات .

وكيف لا يتهلل وجه خالد بن سعيد وقد تولى بنفسه في مجلس النجاشي أمر زواج ابنة عمه برسول الله ﷺ ، وكيف لا يطير

فرحاً ، وقد غدا بهذا النكاح قريباً جداً من رسول الله ﷺ .

وتزوجها النبي ﷺ على صداق قدره أربعمائة دينار ، وكان يوم زواج أم حبيبة في مجلس النجاشي يوماً مشهوداً .

وأَوْلَم النجاشي لهم وليمة الزواج قائلاً : « **اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزاوج** » .

وخرجت أم حبيبة من مجلس النجاشي وكلها فرح وسرور ، وكيف لا تكون كذلك وقد أبدلها الله بزوجها المرتد سيد الأولين والآخرين .

وباتت أم حبيبة ، وهي « **أمًّا للمؤمنين** » وفي الصباح ، جاءتها « **جارية النجاشي** » تحمل اليها هدايا نساء الملك من عود وعنبر وطيب ، فقدمت إليها « أم المؤمنين » خمسين ديناراً من صداقها قائلة :

« **كنت أعطيتك السوارين بالأمس ، وليس بيدي شيء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا** » .

فرفضت الجارية أن تأخذ الدنانير ، وردَّتْ لها السوّارين ، وهي تقول : إن الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئاً . كما أمر نساءه أن يعثن إليها مما عندهن من طيب .

وتقبلت « **أم حبيبة** » الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبي ﷺ .

وأقامت أم حبيبة بالحبشة مع المهاجرين في انتظار أمر الرسول لهم بالهجرة إلى المدينة ، وعندما جاء الأمر طاروا فرحاً ، فأسرعوا يودعون النجاشي ، وينطلقون إلى المدينة .

واستقبل النبى ﷺ مهاجرى الحبشة فرحاً ، وقد فتح الله عليه خيبر .

وعبَّر رسول الله ﷺ عن فرحته الغامرة بعودة هؤلاء المهاجرين قائلاً :

« والله ما أدرى بأيهما أنا أُسَرُّ ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر بن أبى طالب » .

واحتفلت « المدينة » بدخول أم حبيبة بيت النبى ﷺ ، فأوْلَم عثمان بن عفان وليمة حافلة ، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم والثَّريد .

وسارت الحياة بأم حبيبة في بيت النبي ﷺ رخاء ، لا يكدرها إلا ماتراه من صَدٍّ ونفور من أبيها عن الدين الحق .... ولطالما مَنَّت نفسها بإيمان أبيها .

وعُقِدَ « صلح الحديبية » بين النبي وقريش ، وهدأت نفس أم حبيبة قليلاً ، فربما كانت الهدنة فرصة لأبيها ، كي يراجع نفسه ، وربما هداه عقله إلى الإيمان بالله ورسوله وحقن دماء قريش وحلفائها ....

وبلغها يوماً أن قريشاً قد نقضت « صلح الحديبية » ، وأدركت

بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته ، أنه لن يسكت على الظلم ، ولن يرضى أن يُغْدر به ، أو ينقض له عهد ، فهل يغزو « **مكة** » ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين .

لاحت نذر الخطر في « **مكة** » فاجتمع قادتها يتشاورون في أمر « **محمد** » الذي يوشك أن ينقض عليهم . لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه ، أما الآن .. فقد صار له السلطان الأكبر في بلاد العرب .

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولاً منهم إلى المدينة ، يفاوض محمداً ﷺ ، في تجديد الهدنة ومدّ أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون هذا الرسول ؟؟...

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه .

على هذا .. أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع أبو سفيان إلا أن يخضع للأمر .... فليمض إلى محمد خصمه اللدود ، يسأله الموادعة والمسالمة !!.

وخرج « **أبو سفيان** » من مكة ، قاصداً المدينة إلى بيت ابنته لعلها تكلم زوجها رسول الله فيشفع لقريش عنده .

ووصل أبو سفيان إلى المدينة المنورة ، وتلفّت يمينه ويساره .... فرأى المدينة تدب بالحركة ، وكان عَهْدُه بها قبل سنوات هادئة ساكنة ، لا تكاد ترى في طرقاتها حركة أو نشاطاً .

وفوجئت أم حبيبة بأبي سفيان يدخل بيتها ، ولم تكن قد رأته منذ

أن هاجرت إلى الحبشة ، فوقفت تجاهه صامتة ساكتة ، لا تدري ماذا تفعل أو ماذا تقول ...

ولعل أبا سفيان قد قدّر الموقف ... والتمس لابنته العذر بأنها لم تدعه إلى الجلوس ... فتقدم ليجلس على الفراش المبسوط في ركن الغرفة ، فما راعه إلا أن قفزت ابنته على الفراش ، واختطفته وطوته بعيداً عنه .

ووقف أبو سفيان حائراً نتيجة لما فعلته ابنته ، وسألها عما فعلت :

« أطويته يابنية رغبة بي عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عني » .

وأجابت أم المؤمنين بثبات وثقة : **« بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه » !!...**

وذهل أبو سفيان من رد ابنته ، فقال لها والألم يفري كبده :

« لقد أصابك يا بنية بعدي شر » . وانصرف مقهوراً ...

واستندت هي على جدار منزلها ، معطلة الحواس ، حتى جاء النبي ﷺ ، أخيراً فعرفت ماكان من أمر أبي سفيان :

ذهب إلى النبي ﷺ ، فكلّمه في العهد فلم يجبه بشيء ....

فتوسل بأبي بكر إلى الرسول لكن أبا بكر رفض ....

فكلم **« عمر بن الخطاب »** فرد عليه في غلظة : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .

وانطلق أبو سفيان إلى بيت على على بن أبي طالب » فقال له :

« إنك أمسُّ القوم بي رحماً ، وإني قد جئت في حاجة ... فاشفع لي إلى محمد » .

فرد عليه علي :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

وعاد أبو سفيان إلى مكة يجرُّ أذيال الخيبة والفشل ، بعد أن سدَّت أمامه كل السبل .

واستمر المسلمون في الاستعداد للفتح الأكبر .... فتح مكة .

ولم تمض أسابيع حتى فُتِحت مكة ، واهتزت أنحاؤها بالنداء الخالد : الله أكبر .... الله أكبر .

وأسلم أبو سفيان ، وكان لهذا النبأ وقعه الجميل على قلب أم حبيبة فأخيراً تم لها ماتمنَّت ، واكتملت سعادتها بإيمان والدها ....

وعاشت أم سلمة بعد موت النبي ﷺ ، حتى أسنَّت .

وعندما مرضت مرضها الذي ماتت فيه ، دعت أم المؤمنين عائشة ، فقالت لها :

« قد يكون بيننا مايكون بين الضرائر ، فغفر لى ولك ما كان من ذلك » .

فقالت لها عائشة :

« غفر الله لك ذلك كله وتجاوز ، وحلَّك من ذلك » .

ومهلل وجه أم حبيبة بالفرحة :

وقالت لها : سَرَرْتنى سَرَّك الله .

وفعلت مثل ذلك مع **« أم سلمة بنت زاد الركب »** .

ثم توفيت سنة أربع وأربعين هجرية ، ودفنت بالبقيع في المدينة المنورة .

رحم الله أم حبيبة ، أم المؤمنين .

١١ ــ ميمونة بنت الحارث الهلالية

« رضي الله عنها »

سماها رسول الله ميمونة فيوم زواجها هو يوم دخول النبي مكة بعد سبع سنين من الهجرة فكان يومها يوماً ميموناً حلت بركته على للسلمين والإسلام بالفتح العظيم .

هي « **بَرَّة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية** » إحدى الأخوات للاتي قال عنهن النبي ﷺ « **الأخوات مؤمنات** » .

شقيقها « **أم الفضل** » « **لبابة الكبرى بنت الحارث** » زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه ، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام .

وأخوات برة لأمها : زينب بنت خزيمة الهلالية ، أم المؤمنين وأم المساكين . و « **أسماء بنت عميس الخثعمية** » زوجة جعفر بن أبي طالب ذى الجناحين ، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمداً ، وتزوجها بعد ذلك الإمام على بن أبي طالب ، و « **سلمى**

بنت عميس » زوجة حمزة بن أبي طالب وشهيد أحد ، وأمهن جميعاً ، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ، التي كان يقال فيها :

أكرم عجوز في الأرض إصهاراً هند بنت عوف ، وأصهارها ، رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما ، وجعفر وعلى ابنا أبي طالب رضي الله عنهما .

وكان لهند أصهار آخرون من ذوى المكانة .

وكانت برّة — في ذلك الوقت — أرملة في السادسة والعشرين من عمرها ، قد مات عنها زوجها « **أبو رهم بن عبد العزى العامري** » .

وكانت برة قد ولّت أمرها إلى شقيقتها « **أم الفضل** » فحدّثت زوجها العباس في أمر أختها ، وأنها ما زالت شابة صغيرة على الترمل ، فزوّجها العباس من النبي ﷺ ، على صداق قدره أربعمائة درهم .

وفي « **سرف** » قرب التنعيم ، على مقربة من مكة ، جاءت « **برة** » يصحبها مولى النبي عليه الصلاة والسلام .

فتزوجها النبي ﷺ في ذي القعدة سنة سبع هجرية ، ثم عاد بها إلى المدينة .

وسمّاها الرسول ﷺ ميمونة ، إذ كان يوم زواجه بها في المناسبة الميمونة ، التي دخل فيها النبي مكة لأول مرة من سبع سنين ، ومعه أصحابه آمنين محلقين رؤوسهم لا يخافون .

ودخلت ميمونة بيت النبي ﷺ ، مسالمة ، قد اكتفت من دنياها بما منَّ الله عليها من نعمة الإسلام ، وشرف الزواج بالنبي ﷺ .

فلما انتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه الأعلى ، عاشت ميمونة تذكر اليوم الذي جمعها بخير البشر أجمعين ، وتحنُّ إلى البقعة المباركة في « **سرف** » التي تزوجها بها النبي ﷺ .

وقد أوصت أن تدفن في موضع قبعها بـ « **سرف** » فلما ماتت سنة إحدى وخمسين ، صلى عليها ابن أختها عبد الله بن عباس ، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها ، حتى دفنوها حيث أحبت ، وتركت وراءها ذكرى عاطرة ....

رحم الله ميمونة أم المؤمنين .

١٢ ــ مارية القبطية

« أم إبراهيم رضي الله عنها »

> شاءت إرادة الله أن تكون أم إسماعيل عليه السلام مصرية وهى « هاجر » ، وأن تكون مصرية أيضاً وهى « مارية » زوجةً من زوجات بيت النبى ﷺ ، وفى للمصريين قال ﷺ : « استوصوا بقبط مصر خيراً » .

هي « **مارية بنت شمعون** » أبوها قبطي وأمها مسيحية رومية ، ولدت في قرية عتيقة في صعيد مصر ، تدعى « **حفن** » الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين .

وأمضت بها طفولتها ، ثم انتقلت في أول شبابها مع أختها « **سيرين** » إلى قصر « **المقوقس عظيم القبط ملك الإسكندرية** » .

وقد سمعت هناك بظهور نبي في جزيرة العرب ، يدعو إلى دين سماوي جديد ، وكانت في القصر حين وفد « **حاطب بن أبي بلتعة** » رضي الله عنه موفداً من النبي ﷺ برسالة إلى المقوقس .

وأذن له بالدخول ، فسلّم « **حاطب** » الرسالة إلى المقوقس :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون .

وقرأ المقوقس الكتاب بعناية ، ثم طواه ، ووضعه في حُقٍّ من عاج ، ثم أعطاه لواحدة من جواريه .

والتفت بعد ذلك إلى « **حاطب** » يسأله أن يحدثه عن النبي ﷺ ، ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس قليلاً ثم قال لحاطب :

« قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعني » .

وظن أن مُلكه سيزول فدعا بكِاتبه فأملى عليه رده :

... أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ...

« قد كرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك » .

وأعطى « **المقوقس** » كتابه لـ « **حاطب** » معتذراً بما يعلم من تمسك القبط بدينهم ، وموصياً إياه بأن يكتم ما دار بينهما ، فلا يسمع القبط منه حرفاً واحداً .

وانطلق « **حاطب** » عائداً إلى النبي ﷺ ومعه « **مارية** » وأختها « سيرين » وعبد ، وألف مثقال ذهباً ، وعشرون ثوباً من نسيج مصر ، وبغلة شهباء ، وعسل ، وبعض العود والند والمسك .

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن ، فسارتا تملآن أعينهما من أرض الوطن .

وأحس « **حاطب** » بما تشعران به الأختان من ألم الفراق ، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ بلاده العريق ، ثم حدثهما عن النبي ﷺ ، وعن الدين الإسلامي ، فانشرح قلباهما للإسلام ونبيه الكريم .

وأخذتا تفكران في حياتهما الجديدة ، وفي النبي ﷺ ، الذي ينتظر في « **المدينة** » رجوع صاحبه « **حاطب** » بجواب المقوقس ، وعرض عليهما « **حاطب** » الإسلام ، فأسلمت هي وأختها .

ووصل حاطب المدينة سنة سبع من الهجرة ، وكان النبي ﷺ قد عاد من الحديبية ، بعد أن عقد الهدنة مع قريش .

وتلقى النبي ﷺ كتاب المقوقس ، وهديته ... وعندما رأى النبي ﷺ مارية وأختها ، أعجب بمارية ، ووهب أختها « **سيرين** » لشاعره « **حسان بن ثابت** » ، التي أنجبت له ولده « **عبد الرحمن** » .

وتزوج النبي ﷺ مارية ، ومضى عام على زواجه منها وهي سعيدة بحظوتها لدى النبي ﷺ فقد اطمأن بها المقام في كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب شأنها شأن باقي أمهات المؤمنين ، وكان النبي ﷺ الصاحب والوطن والأهل ، وصار كل همها وتفكيرها هو كيفية إرضائه .

وكانت مارية تفكر حينما تخلو بنفسها في السيدة هاجر ، ومصريتها ، وأمومتها لإسماعيل وللعرب ، فمارية فيها ملامح شبيهة بهاجر ، فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت « **هاجر** » هبة من سارة لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، كما أن « مارية » هبة من المقوقس للنبي محمد ﷺ .

ولكن هاجر كانت أماً لولد سيدنا إبراهيم ، فهل ستصبح مارية أماً لولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ؟!...

واستقبلت مارية عامها الثاني في حياة النبي ﷺ ، وهي لا تكف عن ذكر هاجر ، وإسماعيل ، وإبراهيم .

وفجأة أحست مارية بعلامات الحمل ، فكذبت إحساسها ، وخُيِّل إليها أن المسألة وهمٌ خيَّله إليها شوقها الدائم إلى الأمومة ، وتفكيرها الدائم في هاجر وإسماعيل .

وكتمت ما بها شهراً وشهرين ، وهي في شكٍّ من أمرها ، لا تدرى أحقٌّ هذا أم حلم ؟ حتى ظهرت عليها علامات الحمل ، وصارت واضحة لا يمكن الشك فيها .

وعندئذ .. أفضت بالأمر إلى أختها « سيرين » ، فأكدت لها أنها حامل ، وأن ما فى بطنها جنين حى ، ولا يمكن الشك في ذلك .

وفرحت مارية فرحاً عظيماً بهذه البشرى ، فما ظنت أن السماء سوف تستجيب لدعائها بهذه السرعة ، وأن أملها صار حقيقة ، لا وهماً .

وأفضت بسرها إلى النبى ﷺ ، وهنا تذكَّر ما كان يلاحظه عليها من توعك وبُعْد عن الطعام ، وهى أعراض عرفها من قبل في « خديجة » مع بداية كل حمل ، ولكن حسبها في مارية وعكة طارئة لا تلبث أن تزول .

ورفع النبى ﷺ وجهه المشرق إلى السماء ، يشكر الله على هذا الجميل الذى مَنَّ به عليه ، بعد أن فقد ابنته الغالية « **زينب** » ، وماتت قبلها رقية ، وأم كلثوم ، وعبد الله ، والقاسم ...

سبحان الله ... وسعت رحمته عبده محمداً عليه الصلاة والسلام ، كما وسعت من قبله عبديه إبراهيم وزكريا عليهما السلام .

وسرعان ما انتشر الخبر فى أنحاء المدينة ، أن المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ينتظر مولوداً سعيداً له من مارية .

وكان لهذا الخبر وَقْعهُ الأليم على نساء النبى ﷺ ، أتحمل هذه الغريبة القبطية ، ولم يمْضِ على وجودها في المدينة سوى عام ، وأن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل ؟ ....

ونقل النبى ﷺ مارية إلى « **العالية** » بضواحى المدينة ، توفيراً

لراحتها وسلامتها ، وعناية بصحة جنينها .

وكان النبى ﷺ يسهر على راحتها ليرعاها ، وكذلك أختها « سيرين » ، حتى اكتملت أشهر الحمل ، وحانت ساعة الوضع في شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، واستدعى لها النبى ﷺ دايتها « سلمى » زوجة أبي رافع ، ثم جلس في ناحية من الدار ، يصلى ويدعو ربه ...

فلما جاءته سلمى بالبشرى ، أجزل لها العطاء ، وأسرع إلى مارية فهنأها بمولودها الذى أعتقها من الرِّق ، ثم حمل الوليد بين يديه في فرحة وسعادة ، وسماه « إبراهيم » تيمناً باسم جد الأنبياء .

وتصدَّق النبى ﷺ على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد ، وتنافست نساء الأنصار أيهن ترضعه ، وأحبوا أن يفرغوا مارية للنبى ﷺ ، لما يعلمون من حُبِّه لها ، واختار النبى ﷺ مرضعة لولده .

وراح يراقب نموه يوماً بعد يوماً ، ويجد فيه أنسه ومسرَّته ، ويودُّ لو شاركه العالم كله في هذا الأنس .

ولم يسعد مارية شيء قدر ما أسعدها أن يهب النبى ﷺ على الكبر ، غلاماً تقرُّ به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة « خديجة » ، أم المؤمنين رضى الله عنها .

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة والكارثة الكبرى .

مرض « إبراهيم » ولم يبلغ عمره عامين ، فحزنت أمه ، ودعت

إليها أختها سيرين ، وظلتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه فى لهفة وقلق ، ولكن الحياة أخذت تنطفىء فيه رويداً رويداً ... فجاء أبوه ﷺ معتمداً على يد « **عبد الرحمن بن عوف** » لشدة ألمه ، فحمل إبراهيم من حجر أمه ووضعه فى حجره ، وهو محزون القلب ، ضائع الحيلة ، لا يملك إلا أن يقول في أسى وتسليم !

« **إنَّا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً** » ، ثم امتلأت عيناه بالدموع ، وهو يرى ولده الوحيد يموت ، وأمه تبكى .

وتُوفِّى عليه السلام لِعَشْر خَلونَ من شهر ربيع الأول ، سنة عشر من الهجرة .

وانحنى النبى ﷺ على جثمان ابنه ابراهيم فقبَّله ، والدمع يفيض من عينيه ، ثم تمالك نفسه وقال :

« **يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وإن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنَّا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنَّا بك يا إبراهيم لمحزونون . تبكى العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب** » .

ثم نظر إلى مارية في عطف ورثاء ، وقال يواسيها : « **إن إبراهيم ابنى ، وإنه مات في الثدى ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة** » .

وجاء ابن عمه « **الفضل بن عباس** » فغسَّل الوليد الميت ، وأبوه عليه السلام جالس ينظر اليه في حزن وأسىً .

ثم وضع الوليد على سرير صغير ، وصلَّى عليه أبوه ، عليه الصلاة والسلام ، وكبَّر أربعاً ، ثم سار وراءه إلى البقيع ، ووضعه بيده في قبره ، ثم سوَّى التراب عليه ، وندَّاه بالماء .

ووقف المشيِّعون واجمين ، وقد غابت السماء ، وانكسفت الشمس ، فقال قائلون :

« إنها انكسفت لموت إبراهيم » .

وبلغ هذا القول الرسول ﷺ ، فصلى بالناس صلاة الكسوف وخطبهم ، قائلاً :

« إن الشمس والقمر آيتان من آياتِ الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبِّروا وصلُّوا وتصدَّقوا » .

واستسلم الرسول ﷺ لقضاء الله راضياً به ، وطوى جرحه في قلبه صابراً ، واعتكفت مارية في بيتها ، تحاول أن تتجمل بالصبر ، حتى لا تجدد الجرح في قلب النبى ﷺ ، فإذا نفد صبرها خرجت إلى البقيع ، فاستروحت لقرب فقيدها والتمست راحة في البكاء .

ولكن أيام النبى ﷺ لم تطل بعد موت إبراهيم ، فما أهلَّ ربيع الأول من السنة التالية لموت إبراهيم حتى توفى النبى ﷺ .

وعاشت مارية بعد موت النبى ﷺ خمس سنوات في عزلة عن الناس ، لا تكاد تلقى غير أختها « **سيرين** » ، ولا تخرج إلا لكى تزور قبر الحبيب النبى ﷺ ، أو قبر ولدها إبراهيم بالبقيع.

...

فلما ماتت سنة عشر من الهجرة أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ، ودُفنتْ بالبقيع مع أمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن .

وترك النبى ﷺ ، من بعده وصية ، لأهل مصر ، وهذه الوصية محفوظة ومدونة في صحاح الحديث ، فعن أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه ، قال النبى ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها .. فإن لهم ذمة وصهراً » .

وفي حديث آخر عن النبى ﷺ : « استوصوا بأهل مصر خيراً فإن لهم نسباً وصهراً » .

النسب من جهة هاجر أم إسماعيل عليه السلام جد العرب العدنانية . والصهر من جهة مارية القبطية أم « **إبراهيم بن محمد** » .

وعندما فتحت مصر سنة عشرين بعد وفاة المصطفى بتسع سنين كانت الوصية من ضمن وثائق الفتح ، وذكرها « **عمرو بن العاص** » رضى الله عنه في مفاوضات الصلح بينه وبين مندوبي المقوقس ، قال لهما فيها :

« وقد أعلمنا نبينا ﷺ أنّا مفتتحوكم ، وأوصانا بكم ، حفظاً لرَحِمَنا فيكم ، وأن لكم ، إن أجبتمونا ذمة إلى ذمة ، ومما عهد إلينا أمير المؤمنين : استوصوا بالقبط خيراً ، فإن الرسول ﷺ أوصانا بالقبط خيراً ، لأنه لهم رحماً وصهراً ... »

المحتويـــات

صفحة

هذا الكتاب

إن المرأة المسلمة فى هذا العصر تفتقد القدوة الصالحة والأسوة الحسنة التى تقتدى وتهتدى بها ، فخرجت أجيال وراء أجيال عن جادة الطريق وسواء السبيل ، فأصبحن مصادر فتنة وإغواء ، وأصبحن مصادر شقاء للمجتمعات ، فكم من الجرائم ترتكب فى مجتمعنا الأساس فيها امرأة قد أغوت أو شجّعت وحرّضت أوّ زيّنت .

وما هذا إلا لأنها افتقدت القدوة الطيبة فى هذا المجتمع التى تتكاثر فيه الشرور وتتدافع فيه الشهوات والملذات الدنيوية .

لقد حوى بيت النبوة أنماطاً كثيرة من أمهات المؤمنين ففيهن : المرأة الشابة ، والأرملة ، والتى فُرِّق بينها وبين زوجها لأنه ترك الإسلام ، والتى تزوجها النبى ﷺ لحكمة تشريعية ، والتى كانت ابنة يهودى ، والتى جاءت ضيفة من مصر على جزيرة العرب .

إنه بيت كريم مفضال ، صهر كل هؤلاء فى مزاج واحد ، يعطين القدوة لبنات المسلمين ولنسائهم ولأمهاتهم .

فأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب كل راغبة فى الهدى والتقى والعفاف والغنى وغنى النفس وقرة الأعين .